الفصل الثانى

المجتمع المسيحى

أولا ـ الجنسيات الأوروبية التى استقـرت فى بـلاد الشـام على زمن الحـروب الصليبية وأثرت فى بنائها الاجتماعى :

ثانيا ـ الهيئات الدينية الحربيـة :

١ ـ هيئة الاسبتارية ٠
٢ ـ هيئة الداويـة ٠
٣ ـ هيئة فرسان التيوتون ٠
٤ ـ هيئة مونتجـوى ٠
٥ ـ هيئة القديس توما ٠
٦ ـ هيئة القديس لازاروس ٠

ثالثا ـ طبقات المجتمع الصليبى :

١ ـ الارستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان ٠
٢ ـ طبقـة البولانيين ٠
٣ ـ طبقة الأحرار البورجوازية ٠
٤ ـ طبقة الرقيق والاقنـان ٠

رابعا ـ المسيحيون الشرقيون :

١ ـ الموارنـة ٠
٢ ـ الأرمـن ٠
٣ ـ الأقليات الدينية ٠

اولا ـ الجنسيات الأوروبية التى استقرت فى بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية واثرت فى بنائها الاجتماعى :

قدر لبلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر ، أن تكون مسرحا اختلفت اليه أجناس شتى من الشعوب الاوربية الغربيـــة المتباينة • اذ أن الغزو الصليبى لم يقم به شعب واحد ، ولكن مسيرته حفلت بالعديد من الشعوب ، كذلك لم يقف المد الزاحف على الشام من الغرب الاوربى خلال عصر الحروب الصليبية • والمقصود بالمد الزاحف هنا ، الحمـــلات الصليبية العديدة بما تضمنته من جيوش تنتمى الى عناصر معينة من ناحية ، والتغلغل السلمى فى صورة جماعات الحجاج والتجار من ناحية أخرى •

وفى عصر الحروب الصليبية وجدت ببلاد الشام فئات من عناصر أوروبية متباينة : الفرنسيون ، والالمـان ، والنورمان ، والهنغاريون ، والبريتـون ، والبوعيميون ، والجنوية ، والبيازنة ، والبروفنساليون ، والبلغار ، والفلمنك، والانجليز ، والاسكندنافيون ، والاسبان • ولا ريب أن تلك الشعوب التى عجت بها أرض الشام ، احتوت طبقات ونوعيات من الناس اسهمت فى بناء المجتمع الصليبى • منها الطبقات المحاربة النبيلة ، والاحرار ، ورجال الدين ، والتجـــار •

وبالاضافة الى ذلك ، وفدت من الغرب الاوربى الى الشام أعداد كبيرة من الأوباش ، وفئران أرصفة الموانىء ، ومتسكعو الشواطىء ، ولصوص الأرض والبحر ، والشحاذون ، والمشعوذون ، والمغامرون ، وخريجـــو السجون ، والهاربون من وجه العدالة ، والمجرمون السابقون ، واراذل أوروبا (١) ؛ وكل أولئك أتوا تحت شعار الحروب الصليبية ، وتركزوا فى الموانىء ، لاسيما ميناء عكا الذى كان يعتبر ميناء دوليا على عصر الحروب الصليبية • Port Cosmopolite يزخر بخليط من مختلف شعوب العالم (٢) •

والمعروف أن العنصر الغالب على الحملة الصليبية الاولى هو العنصر

---

(١) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages. Vol. I PP. 379—380

(٢) Grousset : Histoire des Croisades. T. III P. 198

الفرنسى ، ومن ثم فان الوحدات السياسية الصليبية التى تمخضت عنها هذه الحملة فى الشرق ، سادتها النظم الاقطاعية المعمول بها فى فرنسا (١) • وبسبب تغلب العنصر الفرنسى أضحت لغة التخاطب فى مملكة بيت المقدس وامارة انطاكية لغة شمال فرنسا Langue D'Oeil الشائعة عند سكان شمال فرنسا والنورمنديين ، وكذلك من الراجح أن لغة الجنوب Langue D'oc التى جرى استخدامها أول الامر فى امارة طرابلس ، ترجع فى أصـــولها الى تولوز (٢) • ويعزى أيضا الى انتشار اللغة الفرنسية ان اطلق العرب اسـم الفرنجة على الصليبيين جميعا • وفى بداية الحركة ، لوحظ أن الفرنسيين اعتزوا بعنصريتهم وأنه كان لديهم شعور باختلافهم عن العناصر الاخرى مثل الانجليز والالمان والايطاليين (٣) •

والواقع أن الصلة بين الفرنسيين وبلاد الشام لم تكن جديدة ، فهى سابقة على الحركة الصليبية بزمن • فقد جاء العديد من الحجاج الفرنسيين الى الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج ، وبصحبتهم قوات مسلحة لحمايتهم فى معظم الاحوال • وعلى سبيل المثال ، عبر عام ١٠٢٦ م سبعمائة حـاج من اللورين وفرنسا وهنغاريا ، ثم بلغاريا واليونان وآسيا الصـــغرى ، فى طريقهم الى الاماكن المقدسة • ويرى البعض أن الحركة الصليبية فى أصلها كانت حركة فرنسية ، فقد وصف الحملة الصليبية الاولى قائلا : « انهـــا فرنسا زاحفة » •

La Première Croisade, C'est La France en Marche

والمعروف أن البابا سلفستر الثانى (٩٩٩ ــ ١٠٠٣ م) أول من فكر فى ارسال حملات صليبيةالى بيت المقدس ، بغرض انتزاعه من أيدى المسلمين ، وخلفه أحد أبناء كلونى بفرنسا البابا أوربان الثانى ، الذى يعزى اليه الفضل فى الدعوة للحملة الصليبية الأولى (٤) •

وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا أحد العناصر الاوربية التى سيطرت

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤١٢ •
Longnon : Les Français d'outre mer au Moyen Age, P. 107

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٨٩ ــ ص ٩٠ •

(٣) C. Med. H. Vol. P. 330.

(٤) Longnon : op. cit. PP. 103–104

على بلاد الشام ، الا أنهم كانوا مفضلين على غيرهم من العناصر الأخرى • ويرجع السبب فى ذلك الى أنهم لم يعيشوا فى عزلة عن الشعوب التى حكموها، ولم يتعالوا عليهم ، ولكنهم عقدوا معهم أواصر المودة ، وتبنوا عاداتهم وملبسهم وتعلموا لغتهم (١) • حتى الفن فى الارض المقدسة ، غلب عليه الطابع الفرنسى ، ومن الممكن مشاهدة ذلك فىكثير منكنائس الصليبيين (٢)• كذلك ظهر الطابع الفرنسى بوضوح فى هيئة فرسان الداوية ، التى كانت غالبية فرسانها فرنسيين •

وقد لوحظ أن العناصر السكانية من الفرنسيين والانجليز ـ بمقارنتهم بالايطاليين ـ كانوا اقل تماسكا ، واكثر تهورا ، وأقل براعة فى العمل ، وأكثر نهما فى المأكل والمشرب ، وأشد اسرافا ، وأقل حرصا فى الحديث ، بهم ميل الى التهور فى ابداء النصيحة ، بيد أنهم اشد تحمسا فى اعطاء الصدقات ، وأشد اندفاعا فى المعارك ، أعظم العناصر نفعا للدفاع عن الهدف الصليبى ، ومصدر خطر على المسلمين (٣) •

والنورمان من الشعوب التى يرجع اليها الفضل فى النجاح الذى أحرزته فى الحملة الصليبية الأولى • وقد عرف عنهم فى جنوب ايطاليا الميل الشديد الى المغامرة ، غير أنه لم يكن ثمة طموح يرضى الأبناء الصغار ، أو الفرسان الذين ليس لهم اقطاع (٤) • وفى بداية الأمر ، لم يكن فى نية النورمان الاشتراك فى أية حملة صليبية ، وشاءت الظروف أثناء حصار بوهيموند بن جويسكارد لجسر سكافارد بامالفى ، أن علم بمقدم جماعة مسيحية غفيرة العدد ، للتوجه الى الارض المقدسة لمحاربة المسلمين (٥) • ولم يلبث ان أدرك بوهيموند ماتهيؤه له الحروب الصليبية من فرص ، فقرر الاشتراك فيها ، وترتب على ذلك أن انضم اليه العديد من أهالى جنوب ايطاليا ، ومن أشد الناس ولعا بالمغامرة (٦) • وبرز النورمان فى الحملة الصليبية الأولى الزاحفة

---

(١) Small : Crusading Warefare, P. 42.

(٢) Camille : Les Monuments de Croisades, Vol. 1 P. 2.

(٣) Miller : Essays on the Latin Orient, P. 525

(٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٨٩ •

(٥) Gesta Francorum, P. 7

(٦) Ibid., Loc. Cit.

الى الأرض المقدسة ، كاحد العناصر الرئيسية الغالبة عليها • واتضحت شخصية بوهيموند خلال الحصار الصليبى لمدينة انطاكية ، اذ لعب دوره بمهارة ، حتى اذا ما سقطت المدينة ، بدأ النزاع بينه وبين ريموند حول امتلاكها ، مما عطل الزحف نحو بيت المقدس ، ولكنه انتهى بغزو بوهيموند الذى اسس فى انطاكية ثانى الامارات الصليبية فى الشام (١) •

والى جانب الفرنسيين والنورمان ، استقرت الجاليات الايطالية فى الأرض المقدسة • ومنذ البداية ، وجد فى الشام الفرنجية مجتمعان كان لهما الصدارة على غيرهم من المجتمعات ، بالاضافة الى تفوقهما على بقية العناصر الصليبية ، وهما : المجتمع الفرنسى ، والمجتمع الايطالى ، وتتمثل فى الأول النبالة الحربية ، وفى الثانى البورجوازية التجارية ، وبمعنى آخر كان المجتمع الفرنسى صاحب الأرض ، أما المجتمع الايطالى فكانت له السيادة البحرية (٢) •

ويأتى فى مقدمة الجاليات الايطالية ، جماعة التجار من أهل امالفى من مدن ايطاليا ، وهم انشط العناصر التجارية الاوروبية ، والى ما قبل الحروب الصليبية بعدة قرون ، أى منذ القرن السادس للميلاد ، وفدوا الى ساحل الشام ؛ وفى القرن العاشر الميلادى استفاد تجار امالفى من حماية الامبراطورية البيزنطية لهم ، فأسسوا علاقات تجارية مع مصر والشام ، الأمر الذى أدى الى تدفق العديد من حجاج امالفى الى الشام ، وفى عام ١٠٨٠م أقام الأمالفيون مستشفى القديس يوحنا فى بيت المقدس للعناية بالمرضى والجرحى ، واضحت فيما بعد نواة منظمة الاسبتارية (٣) •

أما مدن بيزه والبندقية وجنوه ، فقد لعبت دورا هاما فى أحداث الحركة الصليبية ببلاد الشام • فالنجاح الذى حققه الصليبيون لم يرجع الى كفاية قوادهم وشجاعة جنودهم ، بقدر رجوعة الى الدور الذى قامت به الاساطيل

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٤١٢ •

(٢) Grousset : L'Empire de Levant, P. 320

(٣) Thompson : Econ. and Soc. H'st. of the Middle Ages, Vol. I P.380

البحرية ، التى قدمت العون والمساعدات البحرية اللازمة لاخضـــاع مدن الساحل (١) · والواقع ان المدن الايطالية ظلت شديدة الحـذر بالنســبة للحركة الصليبية ، ولكن ما أن نجحت الحملة الصليبية الأولى فى الاستيلاء على نيقية عام ١٠٩٧ م ، حتى أخذت تزداد اهتماما بالحركة الصليبية · ثم كان أن ظهرت تلك المدن على مسرح الاحداث بعد التيقن من نجاح الصليبيين فى مدينة انطاكية · وخلال سنوات الحملات الصليبية الاولى والثانية والثالثة أخذت كل من جنوه وبيزا والبندقية دورا نشيطا ، ليس فى مجرد النقـــل البحرى للصليبيين ، ولكن ايضا فى الاشتراك الفعلى فى الحروب القائمة · فالجنوية اسرعوا فى المجيء الى انطاكية عقب سقوطها عام ١٠٩٨ م فى اعداد هائلة ، وحرصوا على أن يكونوا أول من يظفر بامتياز تجارى ، وبالفعـــل منحهم بوهيموند امتيازا فى ١٤ يوليه عام ١٠٩٨ ، يقضى بان يكون لهم سوق وكنيسة (٢) · ولم يظهر البيازنة امام سواحل الشام الا عام ١١٠٨ م ، لمساعدة تانكرد الوصى على انطاكية ، فى انتزاع اللاذقية من البيزنطيين ، ووعد تانكرد البيازنة عند انتصارهم بان يجعل لهم حيا فى كل من اللاذقية وانطاكية يزاولون فيه أعمالهم التجارية ، بالاضافة الى اعفائهم من الضرائب فى كل الموانىء والبلاد التابعة له (٣) · وبفضل البنادقة ، تمكن الصليبيون من الاستيلاء على صيدا وصور (٤) ·

ولاتعنينا تفاصيل الأحداث السياسية التى اشتركت فيها المدن الايطالية البحرية جنوه وبيزه والبندقية ، لأنها بعيدة عن نطاق الدراسة التى نحن بصددها · وهنا ايضا نستطيع ان نقرر ان تلك المدن لم تكن مدفوعة الى تقديم جميع المساعدات للصليبيين بوازع دينى ، وانما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة ، ورأت فى الحروب الصليبية فرصـــة طيبة ، يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابويـــة والكنيسة والصليبيين جميعا (٥) · وعلى كل حال ، فقد وصـــل نفـــوذ

---

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية ، ص ٣٨٢ ·

(٢) أرشيبالد لويس : القوى البحرية ، ص ٣٨٢ ·

(٣) Heyd : Hist. du Commerce. T.I. PP. 145

(٤) Com. Med. Hist. Vol. V. p. 329.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٥ ·

Thompson : Op. Cit. Vol. I. p. 400.

المستعمرات الايطالية فى الشرق الفرنجى الى حد بالغ الرفعة (١) • وقد وصف جاك دى فيترى الايطاليين المقيمين ببلاد الشام عام ١٢١٦ م قائلا : « انهم متبصرون فى عواقب الأمور ، على اعتدال فى مأكلهم ومشربهم ، ولهذا عاشوا أعمارا أطول من أعمار الشعوب الغربية فى الشرق ، لهم ولع الى الاسهاب فى الحديث وتنميقه ، وعلى حذر فى اداء النصيحة ، يتقنون شئونهم العامة فى البحر وفى العمل ، لاسيما فى التجارة الواردة » (٢) • ولم تكن المستعمرات التى أقام فيهاالايطاليون سوى قومونات ، ذات حكومات مستقلة ، يتحدث اهلها اللغة الايطالية ، ولم يختلطوا بجيرانهم من الناحية الاجتماعية • ومن المشاهد أن تلك المستعمرات فى كل المدن ، باستثناء عكا ، لم يتجاوز عدد أفراد الواحدة منها بضع مئات من الاشخاص (٣) • غير أنه من الناحية العملية شكلت المستعمرات الايطالية فى الشام دولة داخل الدولة Imperium in Imperio (٤) وشبيه بوضع التجار الايطاليين فى الشام ، تجار مرسيليا فى عكا ويافا وصور وجبيل ، وتجار برشلونة فى صور (٥)•

والألمان من الشعوب التى تواجدت ببلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية فى أعداد قليلـــة ، ونستدل على ذلك من أن يوحنا فورتزبورج ـالحاج الالمانى ، الذى زار بيت المقدس حوالى سنة ١١٧٥ م ، أبـــدى الاستياء حين اكتشف أنه لم يكن للالمان دور فى مجتمع الفرنج (٦) •

وبعد ، فقد عاش على أرض الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، العديد من الجنسيات التى انتمت الى جميع انحاء الغرب الأوربى ، جاءت مدفوعة بدوافع عديدة منها الغزو واداء فريضة الحج والهجرة والتجـــارة والمغامرة ، وبذلك صارت بلاد الشام مجتمعا عالميا (٧) ، فريدا فى نوعه •

---

(١) Grousset : op. cit. Vol. I P. 320

(٢) Miller : op. cit. P. 525

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٤٧١ •

(٤) Miller : op. cit. P. 525

(٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٩٤ •

(٦) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٧١ •

Hayes, Baldwin ; History of Europe, P. 324.

ثانيا ـ الهيئات الدينية الحربية :

كان الدين خلال العصور الوسطى يمثل القوة الحية الكامنة فى تفكير الانسان وأقواله وأعماله ، ومن الصعب التصور فى وقتنا الحالى ما كان للدين من مكانة خلال تلك العصور • وقد اتخذت خدمة الله صورا شتى ، منها وجود الرهبان الذين يقضون حياتهم فى الصلاة والتأمل الدينى داخل أديرتهم ، كذلك وجدت منظمات دينية نهج رهبانها سلوكا أكثر نشاطا ، فهم يعظون ، ويقومون بأعمال التعريض ، ومساعدة الفقراء ، ورعاية المرضى فى المستشفيات (١) • وكان من المناسب لروح العصر ، تأسيس منظمات دينية ، ينكر فيها الرهبان كل مباهج الحياة ، ويقضون حياتهم فى محاربة الوثنية والعدو ، دفاعا عن العقيدة المسيحية • ولا شك فى أن منظمات من هذا النوع راقت فى أعين فرسان أوربا ، ولا سيما الشباب المغامر ، ممن رحب بحياة الرهبانية ، اذا ملئت بحروب يخوضون معاركها من أجل المسيح (٢) •

وقد شهدت الحركة الصليبية فى بلاد الشام ابتكارا فذا فريدا ، أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى ، ويتمثل ذلك فى الهيئات الدينية الحربية التى جمعت بين حياة الرهبانية والفروسية فى رباط واحد (٣) ، وبعبارة أخرى ربطت الحروب بالعقيدة (٤) • ومن الطبيعى ان تلك الهيئات كانت رد فعل للافكار السائدة فى أوربا العصور الوسطى ، التى نبذت فكرة العزلة الديرية (٥) ـ

وعلى الارض المقدسة ، ولدت الهيئا تالدينية الحربية من أجل العالم المسيحى • وأهم تلك الهيئات هيئتا الاسبتارية والداوية ، بالاضافة الى هيئات أقل شأنا مثل الفرسان التيوتون ، وسانت لازاروس ، والقديس توما وغيرهم •

---

(١) King : The Knights Hospitallers. P. 2

(٢) Loc. cit.

(٣) Thompson : The Middle Ages. P. 573

(٤) Chivalry, edited by Prestage., P. 15

(٥) Emerton : Mediaeal Europe, P. 372

١ ـ هيئة الاسبتارية :

وأقدم تلك الهيئا ت، هيئة الاسبتارية ، بيد أن الأصول الأولى لتلك الهيئة غامضة ، ترجع الى نزل Hospice لايواء الحجاج أسسة البابا جريجورى العظيم ، ولا نعرف سيئا عن ذلك النزل الا أن البابا ارسل أحد رؤساء الأديرة يدعى بروس Robus للأراضى المقدسة ، مزودا بتعليمات بتأسيس نزل فى بيت المقدس لخدمة الحجاج ، ويبدو أن البابا وضع تحت يده مبالغ ضخمة من المال لهذا الغرض (١) ٠

وقد مارس الامبراطور شارلمان واجباته كحامى للمسيحيين فى الأراضى المقدسة ، فكان يرسل من حين لآخر مبالغ ضخمة من المال للحفاظ على الأماكن المقدسة والكنائس والأديرة ٠ وبالاضافة الى ذلك ، اهتم بالاعمال الخيرية الحجاج اللاتين ، فشيد من أجلهم عددا من الأبنية عرفت باسم « لاتينى » Latinie تمييزا لها عن المؤسسات البيزنطية ٠ ومن الأعمال التى قام بها رد النزل ـ أو المستشفى ـ التى أسسها جريجورى العظيم (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م) الى الحجاج اللاتين ، وابتنى كنيسة بالقرب من النزل ، وعهد بخدمة المستشفى والكنيسة لمجموعة من الرهبان البندكتيين (٢) ٠

وثمة رأى للمؤرخ وليم الصورى عن الجذور الأصلية لتلك الهيئة ، فقد روى أن تجارا من أمالفى ، حصلوا على اذن من الخليفة الفاطمى فى مصر ، حوالى عام ١٠٢٣ م ، بتأسيس مستشفى فى بيت المقدس ، لرعاية الحجاج اللاتين الفقراء والمرضى ، فلم يعارض ، وبادروا فى التو الى انشائه ، وتم تدشين المستشفى باسم القديس يوحنا المتصدق ، بطريرك الاسكندرية فى القرن السابع الذى اشتهر بالاحسان (٣) ٠

---

(١) King : op. cit. P. 5 and
Delaville Leroux : Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre. PP. 5—7

(٢) Ibid. P. 9

(٣) Recueil des Histoires des Croisades, Hist. Occ., T.I. PP. 822—825
Archer : The Crusades, P. 170

ويعتبر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م بداية الميلاد الحقيقى لمنظمة القديس يوحنا ، فحتى ذلك الوقت لم تكن سوى دار احسان للبندكتيين تقوم بخدمة الحجاج وعلاج مرضاهم وجرحاهم ، ولكنها خلال سنوات قلائل من سيطرة الفرنجة ، تطورت الى منظمة دينية دولية ضخمة ، عرفت باسم الاسبتار Hospitalllers التى حرفت بالعربية الى الاسبتارية ـ صار لها فروع فى معظم أنحاء أوروبا (١) ٠

فعند وصول الصليبيين الى بيت المقدس، ومبادرتهم الى فرض الحصار عليها ، لم يكن من المأمون للسكان الاوربيين المقيمين ، أن يظلوا فى أماكنهم، خشية تعرضهم لانفجار تعصب دينى اسلامى مفاجىء ، ومن جراء ذلك آثروا الاختفاء (٢) ٠ ولكن جيرار المبارك Blessed Gerard حامى ومدير المستشفى ، فضل البقاء والقيام بواجبه ، مخاطرا بحياته ، وما أن بدأ حصار بيت المقدس ، حتى اسرع جيرار ودل الصليبيين على الكنز الذى أخفاء كما دلهم على خطوط مواصلات العدو (المسلمين) ٠ ويبدو أن حاكم المدينة الفاطمى افتخار الدولة ، شك فى تصرفات جيرار ، فأمر بالقاء القبض عليه ، وزج به فى السجن ، ثم استجوبه تحت التعذيب ؛ ومن المحتمل أن جيرار كاد يفقد حياته لو أن الحصار لم ينته سريعا ٠ ونحن لانعرف سوى القليل عن الحياة المبكرة لجيرار ، كما لانستطيع تحديد بلده الأصلى ، على الرغم من الشهرة التى حازها بعد ذلك (٣) ٠

وعلى أية حال ، فحالما اطلق الصليبيون سراح جيرار ، حتى عاد من فوره لاستئناف واجباته كمدير للمستشفى ٠ ويبدو انه قدم خدمات جليلة للصليبيين بعد استيلائهم على المدينة ، بوصفه مقيما بها من سنوات عديدة، وأضحت مستشفاه ـ كما كانت منذ زمن طويل ـ مركزا لخدمة الحجاج اللاتين الذين يزورون بيت المقدس ، ومن الطبيعى انها استقبلت داخل أسوارها العديد من الجنود الجرحى المسيحيين (٤) ٠

---

(١) King : op. cit. P. 19

(٢) Ibid., PP. 19—20

(٣) Loc. cit. and Archer : op. cit. P. 170

(٤) Grousset : Hist. des Croisades. T.I. P. 542 and King op. cit. P. 29

وبعد أن فرغت الحملة الصليبية الأولى من أداء مهمتها ، عاد الكثير من الصليبيين الى أوطانهم فى الغرب الاوروبى ، ومن المسلم به أن العديد منهم شعر بالفضل للعناية التى لقوها فى المستشفى ، حينما كانوا مرضى أو جرحى وبسرعة نالت الهيئة الجديدة شهرة واسعة فى جميع انحاء أوربا · والعشرون عاما التى قضـــاها جيرار مديرا للمستشفى ، كانت بالنسبة لها سنوات الازدهار المطرد ، ونتيجة للحماس انهالت المنح على المنظمة من جميع البـلاد الأوروبية المطلة على البحر المتوسط ، فى صورة أراضى ومنازل (١) ·

وعندما توفى جيرار مؤسس تلك الهيئة حوالى عام ١١٢٠ م ، كان لها فروع أو بيوت فى ايطاليا وجنوب فرنسا وأسبانيا والبرتغال · وحظيت المنظمة بعطف ملوك مملكة بيت المقدس وأمرائها ، ففى عام ١١١٠ م وافق الملك بلدوين الأول على امتياز بمنحها كل املاكها ، وفى عام ١١١٢ م ، أعفى بطريرك بيت المقدس ورئيس اساقفة قيسارية الاسبتارية من دفع ضريبة العشور الكنسية ؛ وفى العام التالى أصدر البابا باسكال الثانى وثيقة بتكوين المنظمة مؤرخة ١٥ فبراير عام ١١١٣ م (٢) · ولا شك أن تلك الوثيقة تعتبر امتياز التأسيس الحقيقى لهيئة الاسبتارية ، اذ وضعها فى نفس المكانة التى تمتعت بها المنظمات الدينية الكبرى الاخرى ، وبمقتضـــاها نال الاسبتار حماية البابوات على مر الأزمنة ، ومنحت لهم ممتلكاتهم فى الشام وأوربا ، وأعفوا من دفع الضرائب ، واضحى لهم الحق فى انتخاب رئيس لهم اذا خلى منصبه (٣) · ثم صدق البابا كاليكستوس الثانى (١١١٩ م ـ ١١٢٤ م) Calixtus II عام ١١١٩ م على الامتيازات التى نالتها تلك الهيئة ، وعززها بعد ذلك بابوات آخرين جاءوا بعده (٤) ·

وبمقتضى وثيقة البابا باسكال الثانى ، انتخب الاسبتارية ريموند دى

---

(١) La Roulx : op. cit. PP. 40—41

(٢) R.H.C., Hist. Occ. T. III P. 446
Archer : op. cit. P. 170

(٣) Grousset : Histoire des Croisades. T.I.P. 542 and King op. cit. P. 29

(٤) La Roulx : op. cit. PP. 40—41

بى Raymond du Puy رئيسا للهيئة خلفا لجيراز (١) · والحقيقة أن الرئيس الجديد كان من طراز مغاير ، فهو رمز حقيقى للمحارب الكنسى ، قام بتغيير شامل فى شخصية الهيئة خلال عهده الطويل البالغ أربعين عاما تقريبا (١١٢٠ ـ ١١٥٨ م) ·

أما بخصوص اتجاه هيئة الاسبتارية الى النشاط الحربى ، فقد حدث ذلك لتلك الهيئة دون هيئة الداوية التى دأبت على محاربة اعداء المسيحية منذ البداية ، ويرجع تحول الاسبتارية الى النشاط الحربى بالاضافة الى الاعمال الخيرية لسببين : الاول هو أن الفرسان الجدد ممن التحقوا بالهيئة بعد فترة طويلة من انشائها لم يقنعوا بحياة الرهبانية وحدها كما ارتضى بها مؤسسوا الهيئة الأوائل ، ذلك أن الفرسان الجدد تطلعوا الى ممارسة حياة الفروسية بما يتلاءم مع طبيعتهم الاقطاعية · أما السبب الثانى لهذا الاتجاه الحربى ، فيرجع الى أن هيئة الداوية نالت رضاء البابوية بسبب طبيعتها الحربية ، مما جعل الاسبتارية تعمل لتفوز بمثل هذه المكانة وما تلاها من امتيازات (٢) ·

وليس فى الامكان أن نقرر تماما الوقت الذى قامت فيه الهيئة بدورها العسكرى ، وذلك راجع الى أن التغيرات الكبرى فى التاريخ لاتتم دفعة واحدة ، ولكن بالتدريج · ويلمس الباحث أن الهيئة لم تتوقف عن أداء واجبها الخيرى ، والا كان لديه حدثا هاما لا يمكن اغفاله (٣) · وأول دليل لدينا على تحويل الاسبتارية الى هيئة عسكرية ، يرجع الى بداية عام ١١٢٦ م عندما أشارت المصادر الى رجل يدعى دوراندو Durando بصفته كوند سطبل (كونستابل) Constable للهيئة ، ومن المعروف ان الكونستابل كان لقبا لرتبة عسكرية عالية فى القرن الثانى عشر (٤) · ونستدل من ذلك أنه لو كان للمنظمة تلك الرتبة وقتئذ ، فلا يخالجنا أدنى شك فى أن الاسبتار سادوا قوة حربية داخل المنظمة ، وبذلك نكون قد وصلنا الى بداية الطريق

---

(١) R.H.C., Hist. Occ. T. III P. 446

(٢) نبيلة مقامى : فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ص ٢٩ ·

(٣) King : op. cit. P. 32

(٤) La Roulx : Op Cit. p. 45 &
King : Op Cit. p. 34.

العسكرى للمنظمة • ولما توفى الملك بلدوين الثانى عام ١١٣١ م ، خلفه صهره فولك كونت أنجو ، وفى عهد هذا الملك الجديد سمعنا عن النشاط الحربى لمنظمة الاسبتارية ، اذ صار من الواضح انها سلكت هذا المسلك الذى ظل باقيا بعد ذلك لفترة سبعمائة عاما (١) •

وقد تكونت هيئة الاسبتارية مثلها فى ذلك مثل الهيئات الدينيـــة الحربية الاخرى من الاخوة الرهبان Monks والاخوة الخدم Serving Brothers وعندما أعطاها ريموند دى بى الروح العسكرية ، أضيفت اليها جماعة الاخوة الفرسان (٢) ، التى أصبح لها بمرور الزمن المكانة الاولى فى الهيئة ، حتى عرفت الهيئة كلها باسم هيئة الفرسان الاسبتارية أو هيئة فرسان القديس حنا المقدسى (الاورسليمى) (٣) •

والواقع أن الفرسان كانوا أهم طبقة فى الهيئة واكثرها عددا ، ولا بد أن يكونوا من أصل نبيل ، تركزت فى ايديهم كل قوة تقريبا ، يقع عليهـــم عبء الحرب وادارة بيوت المرضى ، عاهدوا الله على التقشف والطهارة والطاعة• ومن بين الفرسان يتم اختيار اصحاب المناصب العليا فى الوظائف الادارية والتنفيذية ؛ ولهذا تفوقوا على أى طبقة أخرى (٤) • ويرى القديس برنارد Saint Bernard أن فرســـان الهيئات الدينية الحربية ـ الاســـبتارية والداوية ـ كانوا لايرتدون ملابس انيقة المظهر ، ولا يغتسلون الا نادرا ، ترى الواحد منهم أشعثا مغبرا ، داكن البشرة من جراء ثقل اسلحته وشدة حرارة الشمس • وقد بذل الاسبتارية قصارى جهدهم لامتلاك الخيول القويـــة السريعة ، ذات الأسرجة البسيطة البعيدة عن الزينة والزخرفة ، وينصب كل تفكيرهم فى المعركة واحراز النصر ، ومن ثم اختارهم الله لخدمته (٥) ، مثل نشر روح التقشف والزهد بين الصليبيين ، وبث روح المثابرة على القتال

---

(١) King : op. cit. P. 68

(٢) La Roulx : op. cit. P. 288

(٣) سامى سلطان : الاسبتارية فى ردوس ، ص ١٢ •

(٤) King : op. cit. P. 69 and Chalandon : Hist. de La Premiere Croisade, P. 336
Chivalry, P. I

(٥) Fedden : Crusader Castles, p. 34

وقد تشابه التنظيم الادارى فى هيئتى الاسبتارية والداوية ، وان كان هناك بعض الاختلاف الطفيف • ويأتى المقدم Master على قمة التنظيم المركزى فى هيئة الاسبتارية ، غير انه لم يمنح لقب المقدم الأكبر أو السيد الكبير Grand Master الا عام ١٤٨٩ م ؛ وعلى الرغم من سلطته الواسعة، الا انها كانت مقيدةبما يمليه عليه المجمع العام الذى تألف من جميع اعضاء الهيئة المقيمين فى المقر المركزى ، وله الحق فى اصدا رالتشريعات والاوامر النظامية (١) • والمارشال (المشير) Marchal كان مكلفا بالاعمال الحربية للهيئة ، وتوفير حاجة الفرسا نمن جياد وأسلحة ، والاسبتارى Hospitaller كان مسئولا عن المستشفى وتدبير الأدوية ، ويخضع له جميع الاطباء والعاملين بالمستشفى ؛ والقماش Drapier كان مسئولا عن كل ما يتعلق بملبوسات أعضاء المنظمة ؛ وامين الخزينة وهو المسئول عن أموال الهيئة ؛ وأمير البحر أو قائد الاسطول ، وقد استحدثت هذه الوظيفة عندما اضحى للهيئة اسطول حربى أواخر القرن الثالث عشر (١) • وبالاضافة الى ذلك ، وجدت مجموعة عديدة من الخيالة الخفيفة أطلق عليها التركوبولية ، تحت قيادة ضابط يدعى التركوبولى Turcopolier (٢) •

أما عن الرداء المميز لطائفة الاسبتارية ، فقد اصدر البابا انوسنت الرابع Innocent I عام ١٢٤٨ م ، وثيقة اقر فيها لجميع اعضاء المنظمة من فرسان ورهبان وسرجندية وغيرهم ، بارتداء الرداء (الطيلسان) الرهبانى الأسود ، والمطرز على الصدر صليب أبيض • ولكن الفرسان استنكروا بشدة أن يرتدوا هم ورهبانهم المتوضعين رداء واحدا ، ويتضح ذلك من الوثيقة التى أصدرها البابا الكسندر الرابع Alexander IV عام ١٢٥٩ ، أقر فيها رداء خاصا للفرسان لا يرتدية سواهم ، وهو عبارة عن عباءة سوداء يرتدونها فى الدير تمييزا لهم عن بقية الرهبان ، ومعطف آخر علية صليب أبيض مثمن الأطراف عند الخدمة العسكرية • وينم هذا عن التطور المنطقى لاستلاء الفرسان المطلق فى الهيئة ، بيد أن ما جاء بتلك الوثيقة لم يوافق الجميع علية ، لذلك بعد عام من وفاة مقدم الاسبتارية هيوريفيل Hugh Revel عقد

---

(١) Chalandon : op. cit. PP. 337–339

(٢) Chalandon : op. cit. P. 339 and King : op. cit. 72–73
Archer : op. cit. P. 173

الاحمر وقت الحرب (١) • وقد دخل الاسبتارية تحت لـــواء النظام الديرى البندكتى المعروف فى غرب أوربا (٢) •

والواقع أن الهيئات الدينية الحربية لعبت دورا بالغ الاهمية فى الدفاع عن مملكة بيت المقدس طوال القرن الثانى عشر ، وازدادت املاكها عن طريق المنح والتنازل ، حتى صارت على درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ، فبعد سنتين من اعتلاء فولك كونت أنجو عرش مملكة بيت المقدس ، بنى قلعة بيت نوبة فى منتصف الطريق بين يافا وبيت المقدس لحماية طريق الحجاج من اغارات المصريين ، عهد بها للاسبتارية • وفى عام ١١٣٦ م منح هيو سانت أبراهام الاسبتارية قرية بيت جبرين على الطريق الرئيسى من عسقلان الى الخليل ، كى يستطيع الاسبتارية الدفاع عنها ضد أى قوات اسلامية تأتى اليها (٣) • وفى عام ١١٤٢ م منح ريموند الثانى امير طرابلس حصـــن الأكراد Crac des Chevaliers للاسبتارية ، الذى صار أعظم ممتلكاتهم اهمية فى الشرق الفرنجى (٤) ، وحافظوا عليه بنجاح حتى الايـام الاخيرة للفرنجة فى الشام • وفى اكتوبر من عام ١١٥٧ م ، وافق الملك بلدوين على منحة همفرى الطورونى للاسبتارية، وهى نصف قلاع بلبناس وشاتانوف (٥)•

وهبات الثروات الضخمة والحشود الهائلة للاسبتارية احتلال المكانة الاولى فى المملكة • ونستطيع أن نتصور المدى الواسع لممتلكاتهم فى الغـــرب الأوروبى ، اذا علمنا انهم قسموها الى سبعة مراكز او بيوت سميت Langues أى « الألسن » ، ويستفاد من ذلك ان كل مركز غلبت عليه لغة الاقليم الواقـع فى نطاقة (٦) • وفى الارض المقدسة ، انتشرت بيوت الاسبتارية والداوية ، التى كان يشرف على كل منها مقدم ، وفى بعض الاحيان عهد اليه بالاشراف على

---

(١) King : op. cit. pp. 276—777

(٢) Archer : op. cit. P. 175

(٣) William of Tyre : History of Deeds Done beyond the Sea, Vol. P. 542 and King : op. cit. 34.

(٤) Dussaud : La Syrie Antique, P. 130

ويعتبر حصن الاكراد من النماذج الرائعة البالغة الاتقان التى شيدها الصليبيون فى الشام •

(٥) King : op. cit. P. 37

(٦) Thompson : op. cit. Vol. I P. 407

عدة بيوتات ، الامر الذى جعل منصبه بالغ الرفعة • ويمكن تشبيه كل بيت بالمستعمرة التعاونية ؛ وبعبارة أخرى مجتمع صغير يكفى نفسه بنفسه ، يتوافر به كل الامكانيات الضرورية للحياة : القوة البشرية ووسائل الانتاج والمهن الحرفية ؛ وبالاضافة الى ذلك كانت تلك البيوت مراكز لتعبئة وتجنيد الشباب (١) •

ونتيجة لنمو الهيئات فى العدد والثروة ، انزاح الهدف الدينى بعيدا ، وخرج عن أهدافه ، ليأخذ النشاط السياسى والاقتصادى مكانه • وحصلت الهيئات على استقلالها ، اذ كان من حقها عقد الاتفاقيات الخاصة أو الصلح أو الهدنة مع المسلمين دون الرجوع الى مملكة بيت المقدس ، أو التقيد بالسياسة العامة لها ؛ ولم تعترف الهيئات الدينية بالتبعية الا للبابا فى روما مباشرة ، مما جعل منها دولة داخل الدولة (٢) • ومنذ أواخر القرن الثانى عشر بداوا نشاطهم المالى والمصرفى ، فقدموا تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ، ولم يتخذ هذا النشاط صورة استغلالية الا بعد ذلك فى اواخر العصر الصليبى ، مما أثار ضدهم سخط الكثيرين (٣) •

والجدير بالذكر هنا ، أنه خلال القرن الثالث عشر ، انتقل عبء الدفاع عن الممتلكات الصليبية فى الشام الى الهيئات الدينية العسكرية • فالكثير من السادة الاقطاعيين ، بعد أن وجدوا انفسهم عاجزين عن الدفاع عن اقطاعاتهم واملاكهم ضد المسلمين ، آثروا بيعها الى الاسبتارية ، ثم رحلوا الى أوطانهم فى الغرب الأوروبى (٤) •

ومن الملاحظ أن صلاح الدين فى حروبه ضد الصليبيين اتبع سياسة خاصة تجاه طائفتى الاسبتارية والداوية ، قضت بقتل كل من ينتمى اليهما دون استرقاقه ، وكثيرا مافاضت المصادر المعاصرة بذكر عبارات تدل على كره

---

(١) Chalandon : op. cit. PP. 337—338 and Archer: op. cit. P. 178

(٢) Richard : Le Royaume Latin, P. III
Longnon : Les Français d'outre Mer, P. 133

(٣) Grousset : op. cit. Vol. I PP. 545
سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٨٧ •

(٤) Archer : op. cit. P. 177

صلاح الدين الشديد لهاتين الهيئتين مثل : « وكانوا (الداوية) أبغض اجناس الفرنج الى السلطان ، لايكاد يترك منهم احدا الاقتله اذا وقع فى المأسورية (١) ومثل : « فان السلطان رحمه الله ما كان يبقى على أحـــد من الاســـبتارية والداوية (٢) ، ومثل : « فأحضرهما (اثنين من الاسبتارية) للقتل على عادته فى الداوية والاسبتارية (٣) » . والواقع ان صلاح الدين كان صائب الرأى . ومحقا فى كرهه لهاتين الهيئتين، وذلك لتنكر فرسانهم لجميع المبادىء الانسانية، « ولانهم أشد شوكة من جميع الفرنج (٤) » .

وقد أدى سقوط بيت المقدس على يد صلاح الدين ، الى أن يفقد الاسبتارية والداوية مراكزهم الرئيسية الأصلية فى الشام . وبعد فترة قصيرة استقـر كلاهما فى عكا ، الى أن سقطت تلك المدينة ايضا فى أيدى المسلمين عام ١٢٩١م، الامر الذى انهى سيطرة الفرنجة ببلاد الشام ، بينما اتخذ كل من الداويـــة والاسبتارية مقرا لهم فى جزيرة قبرص .

وعلى أية حال ، فان الهيئات الدينية الحربية الكبيرة ، يرجع الفضل اليها فى الحفاظ على الروح الصليبية للصليبيين ، خلال فترة الضعف والانحلال التى مرت بها مملكة بيت المقدس (٥) .

٢ ـ هيئة الداويـــة :

أما الهيئة الدينية الحربية الأخرى المشابهة لهيئة الاسبتارية ، فهى هيئة الداوية . ويرجع تأسيس الهيئة الاخيرة الى عام ١١١٨ م ، ففى ذلك العام توفى الملك بلدوين خلال محاولته غزو مصر ، ودفن الى جانب أخيـــه جودفرى ، وخلفه بلدوين دى بورج كونت امارة الرها . وبعد عام من اعتلائه عرش مملكة بيت المقدس ، برزت الى الوجود مشكلة حماية الحجاج الفرنجة فى الطريق من يافا الى بيت المقدس ، ووجد حل كان له آثار بعيدة المدى على تاريخ

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٠

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .
مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل ، ص ٣٥٥ ـ ص ٣٥٦ .

(٣) ابن خلدون : تاريخه ، القسم الثالث ، ص ٦٩٠ ـ ص ٦٩١ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٣ هـ .

(٥) Chalandon : op. cit. P. 336

مملكة بيت المقدس الصليبية (١) • ففى ذلك العام خرج فارس بور جندى يدعى هيودى باين Hugh de Payns متوجها الى بيت المقدس لاداء فريضة الحج، فشاهد بنفسه مدى مايعانيه المسيحيين من الهجمات الدائمة للمسلمين ، ولذلك صمم على أن يكرس حياته لحماية الحجاج الفقراء على طريق يافا (٢) • وسرعان ما انضم اليه فرسان آخرين حتى وصل عددهم الى ثمانية ؛ عاهدوا الله على العفة والطاعة والتقشف على طريقة الرهبان ، واطلقوا على انفسهم « أتبـاع جنود المسيح الفقراء » The Poor Fellow of Jesus Christ (٣) وزادوا أن اقسموا اليمين على حمل السلاح وتجريده ضد المسلمين ، وبذلك اصطبغت هذه الجماعة منذ اللحظة الأولى ـ وهى فى دور التكوين ـ بصفة القتال والحرب(٤) وحصـل أولئك الفرسان عام ١١١٨ م من الملك بلدوين الثانى (١١١٨ ـ ١١٣١ م) على مقر لهم فى جناح القصر الملكى بالقرب من معبد سليمان (وهو المسجد الأقصى) فى بيت المقدس ، ومن هنا عرفوا باسم فرسان المعبـــد Knights of the Temple ،أما فى العربية فقد عرفوا باسم الداوية نسبة الى محراب داود (٥) • وفى عام ١١٢٧ م رأى هيودى باين ضرورة الحصول على تاييد البابا لتشكيل الهيئة ، لهذا سافر الى أوروبـــا ، فأيـده الكثير بحماس شديد ، خاصة سانت برنارد رئيس دير كليرفو Honorius II الذى بذل نفوذه لدى البابا ، وفى العام التالى كتب برنارد وثيقة الهيئة ، وعرضت على مجمع تروى ، فنالت الهيئة حماية البابا هونوريوس الثانى Clairvaux وخضعت الداوية لنظام السستريان المعروف فى الغرب الأوربى (٦) •

وما أن مرت بضع سنوات على رجوع هيو من رحلته فى أوربا ، حتى مات عام ١١٣٩ م ، مخلفا وراءه املاكا شاسعة ؛ وتدخلت هيئة الداوية فى المسائل السياسية ببلاد الشام ، وادى توسع نفوذها الاجتماعى والسياسى الى اعتراف البابا أيوجين الثالث بها حتى عام ١١٤٦ م ، كهيئة لها نظامها ،

---

(١) King : op. cit. P. 31

(٢) Archer : op. cit. P. 170

(٣) loc. cit.

(٤) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ٩٨ •

(٥) Archer : op. cit. PP. 170—171

(٦) William of Tyre : op. cit. Vol. I P. 526

Archer : op. cit. PP. 171—172 and King : op. cit. PP. 31—32

وأمر بان يحمل فرسان الهيئة الصليب الأحمر المطرز على أرديتهم البيضاء ، محمرة الصليب رمز للتضحية والاستشهاد والدفاع عن المسيحية ، أما البياض فرمز للعفة والطهارة (١) ٠

والهيئتان الكبيرتان الاسبتارية والداوية ، سارتا فى طريقين متوازيين ، أى أنهما تماثلتا فى وجوه كثيرة ٠ فلم تلبث طائفة الداوية أن استقلت استقلالا تاما عن مملكة بيت المقدس ، ولم يعد لحكومة تلك المملكة أى نفوذ عليها ، وأيضا رفضت الاعتراف بالتشريع القضائى للبطريركية مستمدة نفوذها من البابا فى روما (٢) ٠

وحازت الداوية أيضا ، على الاراضى والمنقولات والعقارات ، بطريق الهبات أو الشراء ، حتى صار لها ممتلكات ضخمة فى الشـــام وفى الغرب الأوربى : فرنسا واسبانيا وانجلترا وايطاليا (٣) ٠

ويبدو ان فرسان الداوية لم يحافظوا على اهدافهم ومثلهم الأولى ، فقد نبذوا التواضع ، واتهموا بالجشع والأنانية ، وجـعلوا العوامل السياسية والمالية ، تطغى على العامل الدينى تقريبا ، والحقوا الضـــرر بالمسيحيين فى بعض الأحيان ، نتيجة تحالفهم مع بعض الامراء المسلمين ، وظهروا بمظهر الكبرياء والتشامخ (٤) ٠ وبفضل الثروات الضخمة التى حازها فرســـان الداوية ، صار لهم نشاط مصرفى ضخم ، وأضحى بوسعهم تمويل الحملات الصليبية ، فحملة لويس السابع لم تتحقق الا بفضل الداوية الذين دفعوا له مبالغ ضخمة ، جرى تسديدها لهم فى فرنسا ، ولم ينته القرن الثانى عشر ، حتى أضحى الداوية يمارسون بانتظام عملية اقراض الاموال نظير فائـــدة مرتفعة ٠ ومع أنهم لم يكونوا موضع ثقة من الناحية السياسية ، فان سمعتهم المالية بلغت من الارتفاع حدا جعل المسلمون يولونهم الثقة ، ويفيدون من

---

(١) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ٩٩ ٠

(٢) Chalandon : op. cit. P. 332
C. Med. H. Vol. V. P. 306

(٣) Chalandon : op. cit. PP. 332—333

(٤) Miller : op. cit. P. 528
Grousset : op. cit. Vol. I pp. 543—544

خدماتهم • واذا كان الاسبتارية والتيتون مارسوا عمليات مالية من هـذا القبيل ، الا انها كانت على نطاق يقل كثيرا عما كان عند الداوية • وثمـة شائعات ترددت عن فرسان الداوية ، أنهم يدرسون فلسفات غريبة ، ويمعنون فى طقوس وصفت بانها هرطقة ، واتهموا بتلقين الرهبان المبتدئين شعائر وثنية منافية للدين والأخلاق (١) •

وامتلك الداوية فى الشام العديد من القلاع ، فقد كانوا سـادة قلاع طرطوس ، وتورون ، وشاستيل بلان ، وصافيتا ، وقلعة الحاج (٢) •

ويشهد تاريخ الحروب الصليبية فى الشام على أن فرسان الداويـة والاسبتارية ، كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال ، وأكثرهم صبـرا وشجاعة ، وانه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية ، لانتهى أجل الوجود الصليبى بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بفترة طويلة (٣) • واشتهر الداوية ـ بصفة خاصة ـ بشجاعتهم واقدام فى الحروب ، فهم أول من يقتحم المعركة ، وآخر من يغادر ساحتها (٤) •

واذا كانت هيئات الاسبتارية والداوية قد تشابهتا الى حد بعيد فى تأسيسهما وتنظيماتهما واهدافهما على وجه التقريب ، الا ان العلاقة بين الهيئتين لم تكن ودية ، بل سادتها روح المنافسة والعداء • ففى المعركة لايحارب الاسبتارى تحت راية الداوى ، ومن ثم لايقوم الاثنان بعمل مشترك، الأمر الذى أدى فى كثير من الأحيان الى الحاق الضرر بأى تماسك فى المعركة • وترجع المنافسة بين الهيئتين الكبيرتين الى وقت مبكر ، غير أنها صـارت اكثر حدة فى القرن الثالث عشر ، ووصـل الأمر الى أن دارت رحى المعارك الضارية بين الهيئتين (٥) •

والتنظيم الادارى لهيئة الداوية ، الذى يشتمل على اصحاب الوظائف

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٦٢ •

(٢) Chalandon : op. cit. P. 332

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٦ •

(٤) La Monte : Feudal Monarchy, P. 219

(٥) Archer : op. cit. PP. 186—187

الكبرى ، لم يختلف كثيرا عن نظيره فى هيئة الاسبتارية • فعلى رأس هيئة الداوية المقدم الأعلى أو السيد الكبير • وتألف المجمع العـام للداوية من أصحاب الوظائف الكبرى ، بخلاف المجمع العام لهيئة الاسبتارية الذى تألف من جميع أعضاء المنظمة • وعلى هذا النحو ، فالمجمع العام للداوية كان يشكل مجلسا استشاريا للمقدم الأعلى ، ويفهم من ذلك أن المقدم تمتع بسلطات كبيرة ، غير أنها فى الواقع لم تكن مطلقة ، اذ عليه العمل بنصيحة مجلسـه الاستشارى (١) • ويلى المقدم الاكبر فى المنصب القهرمان (السـنجال) Le Sénéchal ثم المارشال Marshal ، وأولئك وقع عليهما عبء تجهيز الهيئة بالأسلحة والأسرجة والخيول • ويلى ذلك مقدموا الاقاليم أو البيوت Commanders ، وقد اطلق على أقدمهم « مقدم أرض ومملكة بيت المقدس » ، ثم أمين الخزانة الذى اسند اليه ميناء عكا ؛ ويأتى فى المرتبـة الأخيرة من تسلسل الوظائف الكبرى القماش ويقع عليه عبء تدبير كـل ما يتعلق بملبوسات اعضاء الهيئة ، ثم التركوبولى (٢) •

على أن فرسان هيئة الداوية فى نهاية عهدهم ، مالبثوا ان انغمسـوا فى ترف الحياة المادى ، ومالوا الى التنعيم برفاهية الحياة ، ولاقوا نفس المصير الذى لقيه فرسان الاسبتارية ، وبمعنى آخر كانت النهاية الأليمة للهيئتين واحدة (٣) •

٣ ـ هيئة فرسان التيوتـون :

بعد أن تناولنا بالدراسـة الدور الذى قامت به الهيئتان الدينيتان الحربيتان الكبيرتان ـ الاسبتارية والداوية ـ ببلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ، لم يبق امامنا سوى بعض الهيئات الأخرى ، التى قامت بدور ثانوى ضئيل على مسرح الأحداث التى جرت بين المسلمين والصليبيين • ونعنى بتلك الهيئات : هيئة فرسان التيوتون ، وهيئة القديس توما بعكا ، وهيئة القديس لازاروس •

وهيئة فرسان التيوتون أقل فى الأهمية كما اسلفنا القول • وهى ترجع

---

(١) Ibid., P. 172

(٢) Chalandon : op. cit. P. 338

(٣) حسن حبشى : الرجع السابق ، ص ١٠٠ •

فى أصولها الى عام ١١٢٨ م ، عندما أسس حاج المانى ثرى وزوجته مستشفى مريم العذراء فى بيت المقدس ، من أجل مواطنيهم الحجاج الألمان الفقراء ، ويبدو أنها وضحت بطريقة ماتحت اشراف المقدم الأكبر لهيئة الاسبتارية (١)٠ وقد اندمج رهبان المستشفى الألمان تحت لواء النظام الأوغسطى المعروف فى الغرب الاوروبى ، وارتدوا عباءة بيضاء مطرز عليها صليب أسود ٠ ولا ريب ان رهبان المستشفى تطلعوا الى الاستقلال التام ، اذ قدر لهم فى أقل من نصف قرن ، أن يتطوروا الى هيئة شهيرة سميت باسم هيئة فرسان التيوتـــون Order of Teutonic Knights (٢) ويبدو ان تطلع المستشفى للانفصال عن هيئة الاسبتارية ، يرجع الى أنها كرهت أن تكون فى موقف التابع ٠ وفى عام ١١٤٣ م اصدر البابا كلستين الثانى Celestine II وثيقة أقر فيها استقلال المستشفى الألمانى عن نفوذ مقدم الاسبتارية ، على شرط أن يكون مقدمها ورهبانها من بين الذين لهم القدرة على التحدث باللغة الألمانية (٣) ٠

وواصلت المستشفى أداء رسالتها الى ان سقطت مدينة بيت المقدس فى أيدى صلاح الدين الأيوبى عام ١١٨٧ م ، وادى ذلك الى خروج الرهبان من تلك المدينة (٤) ٠ وخلال حصار عكا عام ١١٩٠ م ، أسس بعض التجار من برمن Bermen ولوبك Lubeck مستشفى ميدان للصليبيين الألمان التحق بها الرهبان الذين خرجوا من بيت المقدس ؛ وفى مارس ١١٩٨ م تحول هؤلاء الالمان الى هيئة عسكرية ، قصد بها أن تكون النسخة الالمانية من هيئتى الاسبتارية والداوية معا ، اللتان كان العنصر السائد فيهما هو اللاتين (٥) ٠ والمقصود بذلك أن الهيئة سارت على نهج الاسبتارية فيما يتعلق بالاعمال الدينية والخيرية ، وعلى نهج الداوية فيما يتعلق بالنظم الحربية (٦) ٠ وصار اللقب الكامل للهيئة الجديدة هو : الفرسان التيوتون لمستشفى القديســـة مارى فى بيت المقدس

Teutonic Knights of the Hospital of St. Mary of Jerusalem

---

(١) King : op. cit. P. 42, 305

(٢) bid. P. 42

(٣) bid., Loc. cit.

(٤) rcher : op. cit. P. 182

(٥) King : op. cit. P. 305

(٦) Chalandon : op. cit. P. 343

واتخذت من عكا مقرا لها (١) · وجعلت هيئة فرسان التيوتون من نفسها هيئة عنصرية خالصة ، فلا يلتحق بها الا الفرسان الألمان · ويدل ذلك على ان كل عنصر من العناصر الأوروبية احتفظت بطابعها الخاص المستقل ، لاسيما فى تكوين الهيئات الحربية الدينية · فمعظم فرسان الاسبتارية كانوا من الانجليز والايطاليين ؛ وغالبية فرسان الداوية كانوا من الفرنسيين (٢) · وفى عام ١٢٢٧م بنى الفرسان الالمان قلعتهم الكبيرة ستاركنبرجStarkenburg أو مونتفورت (القرين) على الحدود الغربية للجليل ، شمال فلسطين · وارتدى فرسان الهيئة اردية بيضاء مطرز على صدرها صليب أسود (٣) ·

وفى عام ١٢٢٦ م عين الامبراطور فردريك الثانى أحد الامراء الألمان مقدما اكبر للهيئة ، ومنحها امتيازا بان يحمل الفرسان شعار النسر الامبراطورى فوق أسلحتهم ؛ كذلك أهدى الامبراطور المقدم الأكبر للهيئة خاتما ثمينا ، لايزال يستخدم حتى الوقت الحاضر عند تنصيب المقدم الأكبر للمنظمة · ومن الجدير بالذكر أن هيئة فرسان التيوتون ، كانت الوحيدة التى ساندت الامبراطور فردريك الثانى ، عندما أصدر البابا قرار الحرمان ضده ، ووصفه بانه عدو للعالم المسيحى ، فأعلنت تحديها لذلك القرار ، نظرا لما يربط مقدم الهيئة بالامبراطور من علاقات المودة والصداقة (٤) ·

ولم تختلف هيئة فرسان التيوتون عن هيئتى الاسبتارية والداوية فى تقديم المساعدات الحربية للدفاع عن الشرق الفرنجى ، بيد أنها فى الواقع لم تستطع منافسة الهيئتين الكبيرتين من ناحية القوة والنفوذ ببـــلاد الشام (٥) · وعلى عهد هرمان فون سالزا Herman Von Salza المقدم الأعلى لهيئة التيوتون الذى تولى فى الفترة من عام ١٢١٠ م الى ١٢٣٩ م ، نهضت الهيئة ، ونمت ثروتها ؛ ومن المحتمل انه لمس الوضع السيء للفرنجة بالشام، فأخذ يوجه اهتمامه الرئيسى الى شواطىء بحر البلطيق النائية لنشـــر

---

(١) King : op. cit. P. 305

(٢) Kantorowicz : Frederik the Second. P. 88

(٣) Archer : op. cit. P. 182

(٤) Kantorowicz : op. cit. PP. 193—194

Duggan : The Story of the Crusades. P. 225

(٥) King : op. cit. P. 169

المسيحية بين البروسيين والليفونيين الوثنيين ، وفى مقابل ذلك العمل ، حاز الفرسان على أراض وقلاع منذ عام ١٢٢٦ م (١) ٠

وبعد سقوط عكا فى أيدى المسلمين عام ١٢٩١ م غادرت هيئة فرسان التيوتون بلاد الشام ، وتوجهت الى املاكها على بحر البلطيق لتباشر عملا من نوع آخر ٠

٤ ـ هيئة مونتجـــوى :

لم تكن تلك الهيئة معروفة الا قليلا ، حتى ألقى الضوء على تاريخها المؤرخ ديلافيل لاروليكس Delaville le Roulex وهى هيئة اسبانية ، ترجع أصولها الاولى الى عام ١١٧٦ ـ ١١٧٧ م ، عندما تنازل وليم دى مونتفرات وزوجته سيبيل للكونت رودريج Rodrigue لها باربعة من الأبراج فى عسقلان ، أهمها جميعا برج العذارى (٢) ٠ وفى حوالى عام ١١٨٠ م تشكلت الهيئة باسم هيئة مونتجوى L'Ordre de Montjoye وتأكد تشكيلها بوثيقة من البابا الكسندر الثالث صدرت فى ١٥ مايو من نفس العام ، وقد التزمت الهيئة بالنظام السستريانى ٠ ولم نستطع التيقن من الدور الذى قامت به تلك الهيئة فى الاوضاع الاجتماعية بالشام ، حتى يمكن الحكم على نشاطها٠ ويبدو أن الدور الذى قامت به ضئيلا للغاية ، لاننا نسمع أن هيئة الداوية استوعبت (امتصت) تلك الهيئة حوالى عام ١٢٠٤ م (٣) ٠

٥ ـ منظمة القديس توما بعكا :

وهى أيضا من الهيئات الدينية الحربية الغامضة التى قامت بب ـــلاد الشام ولا نعرف عنها الا القليل ٠ تلك هى المنظمة الانجليزية المعروفة بهيئة فرسان القديس توما بعكا

The Order of the Knights of St. Thomas of Acre.

ويرجع الفضل فى انشائها الى راهب انجليزى يدعى وليم ، جاء مع الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٨٩ م ، تابعا لرالف دى ديسيتو ، وقد كرس هذا الراهب وقته للعمل من أجل دفن الموتى المسيحيين فى عكا ، وبنى كنيســة

---

(١) Miller : op. cit. P. 529

(٢) Richard : op. cit. P. III

(٣) Chalandon : op. cit. P. 344

صغيرة ، واشترى قطعة من الأرض لاستخدامها جبانة ، وأهداها للشهيد القديس توما (١) ٠ويبدو ان فرسان تلك الهيئة كانوا قلة من حيث العدد ، فضلا عن أنهم كانوا فقراء ، وعندما زار بيتر دى روش فلسطين عام ١٢٣١ م، بنى للهيئة كنيسة جديدة ، ووضع الفرسان تحت اشراف هيئة الداوية ، واوصى لهم فى وصيته بمبلغ خمسمائة مارك (٢) ٠ وجرى اتخاذ الفرسان رداء مميزا لهم ، يتألف من معطف أحمر ، مطرز عليه صليب أبيض ؛ وعندما أتى الأمير ادوارد ولى عهد انجلترا الى عكا عام ١٢٧١ م ، بنى للفرسان كنيسة جديدة ٠ وقد استمرت الهيئة فى تأدية دورها الى أن سقطت عكا فى ايدى المسلمين ، فنقلت نشاطها الى مملكة قبرص ، وظلت تمارسه حتى نهاية القرن الرابع عشر (٣) ٠

٦ ـ هيئة القديس لازاروس :

ترجع الأصـــول الأولى لهيئـــة القديس لازاروس St. Lazarus الى مستشفى اقيم فى بيت المقدس لرعاية مرضى الجذام ، وبعد الغزو الصليبى الذى انتهى بالاستيلاء على بيت المقدس ، أضحت هيئة دينية عسكرية مثل الهيئات الأخرى ، ولكنها اهتمت فى المقام الأول بالمجذومين ٠ ومن المصـادر التى توفرت لدينا حتى الآن ، لم تقابلنا أية معلومات عن النشاط الحربى لتلك الهيئة (٤) ٠

* ● *

(١) Stubs : Seventeen Lectures, PP. 209—210
Archer : op. cit. P. 183

(٢) Stubs : op. cit. P. 210

(٣) Archer : op. cit. P. 183

(٤) King : op. cit. PP. 303—304
Ency. Britt. Art. Knighthood.

ثالثاً ـ طبقات المجتمع الصليبى

بعد أن تم للصليبيين الاستيلاء على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، تكونت الأمارات الصليبية بالشام ، من مملكة بيت المقدس الصليبية ، تتزعم ثلاث أمارات هى الرها وانطاكية وطرابلس · وقد قام التنظيم فى تلك المملكة على أساس النظام الاقطاعى الغربى ، الذى كان سائدا فى أوربا وقتئذ ، اذ كان قادة الحملة الصليبية الأولى من سادة الاقطاع الأوروبى ، ومن الطبيعى أن يقيموا النظام الذى عرفوه ، ونشأوا فيه ، والذى لم يكن هناك غيره · ونظرا لأن المسلمين دأبوا منذ قيام الامارات الصليبية وسط بلادهم على شن الحروب والغارات على الصليبيين للعمل على استعادة ممتلكاتهم حتى تم لهم ذلك ، الأمر الذى أدى تعرض مملكة بيت المقدس للعديد من الأخطار طوال وجودها · ولهذا فقدت اختلفت العلاقات الاقطاعية بالشام ، عما جرى بأوروبا الغربية التى تمتعت وقتذاك بقسط من الهدوء لم يتوافر فى الامارات الفرنجية بالشرق، التى غدت فى حالة حرب دائمة (١) ·

ولايخفى علينا أن الكيان الصليبى الذى قام وعاش فى بلاد الشام ، ظل دائما قلة قليلة ، بعد أن عادت نسبة كبيرة من الصليبيين الغربيين ممن اشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى الى أوطانهم فى الغرب الأوروبى · فى نفس الوقت تألفت الغالبية العظمى من سكان مملكة بيت المقدس الفرنجية بالشام من المسلمين والمسيحيين الشـــرقيين على اختـــلاف طوائفهم ومذاهبهم (٢) ·

ولا يستطيع المرء أن يقدر عدد السكان المسلمين والصليبيين ، الذين عاشوا ببلاد الشام عقب وصول الحملة الصليبية الاولى الا تخمينا · فالبعض يرى ان المسلمين الذين تعرضوا للغزو ، فهلك الكثير منهم ، واضطر عدد كبير

---

(١) الباز العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ٣ ·
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٩ ·

ايضا للهجرة فرارا من الغزو ، لم يتبق منهم سوى بضعة مئات الالـوف من الرجال ، من المحتمل من أربعمائة الى خمسمائة ألف · أماالصليبيون الذين رحلوا من الغرب الاوروبى تلبية للدعوة الصليبية ، فقد تراوح عددهم بين ١٥٠ر٠٠٠ و ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة وبفقدان حوالى الثلثين منهم فى الطريق ، لايتجاوز عددهم عند الوصول الى حدود الشام بخمسين ألفا ، ومن هذا العدد الاخير غادر ثلثه الأرض المقدسة بعد الاستيلاء على بيت المقدس مباشرة ، أما الباقى فقد رحل معظمهم بعد أن زال السراب الكاذب عن الثروات التى فى استطاعتهم احرازها (١) ·

واذا كانت الاقلية الصليبية ، قد استطاعت الاحتفاظ بنفوذها السياسى لمدة تقرب من قرنين من الزمان ، الاانها لم تستطع الاحتفاظ بعاداتها وتقاليدها الغربية سليمة نقية ، وانما اضطرت بحكم قلة عددها أن تفقد كثيرا من صفاتها الأصلية ، وتكتسب التعديلات الجديدة (٢) · ونستطيع أن نضيف الى ذلك ، أن الصليبيين انتصروا بالقوة العسكرية على شعوب أعرق منهم حضارة وتقدما ، ولكنهم تأثروا بتلك الشعوب مع أنها قوة مهزومة عسكريا ·

أما الطبقات التى تألف منها المجتمع الصليبى ببلاد الشام على عصـر الحروب الصليبية فنجملها فيما يأتى :

١ ـ الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان :

وهؤلاء كانوا قلة ، اذ لم يزد عددهم فى مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال ، ومثلهم من النساء والأطفال ، ومثل ذلك العدد أيضا فى امارات الرها وانطاكية وطرابلس مجتمعين · وقد ظلت الطبقة التى كان من المفروض أن تظل بمثابة العمود الفقرى للمجتمع الصليبى بالشام ، تعانى نقصا كبيرا فى العدد بسبب كثرة الضحايا فى الحروب ، وقلة الوارد من الغرب (٣) · فوفقا لريموند أجيل Raymond of Aguilers الذى لايرقى الشك الى ما أورده من أرقام عن الجيش ، بلغت القوة الحربية الضاربة قبل بداية الهجوم اثنـاء

---

(١) Chalandon : op. cit. PP. 285—286

(٢) سعيد عاشور : نفس المرجع والصفحة ·

(٣) سعيد عاشور : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٤٩٢ ·

ليلة ١٣ ـ ١٤ يوليـــه على بيت المقدس وقتـــذاك ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ من الفرسان (١) · واذا كانت جموع الحجاج لم ينقطع وصولها الى الشـام منذ سقوط بيت المقدس ، فان القليل منها فضل الاقامة فى الشام بعد أداء فريضة الحج ، أما الغالبية العظمى فكانت تؤثر العودة الى غرب أوروبا · ثم انه اذا كان الصليبيون قد انجبوا الكثير من المواليد فى بلاد الشام ، فانه لم يعش منهم الا عدد قليل ، بسبب العوامل الجوية والصحية التى لم يألفوها · والخلاصة انه اذا أضفنا أقارب النزلاء من الطبقة الحاكمة من النساء والشيوخ، وفى نفس الوقت اسقطنا من اعتبارنا طبقة رجال الدين الذين لم يتجـــاوز عددهم بضع مئات ، وهيئات الفرسان الرهبان ، فان عدد البالغين من الطبقة الارستقراطية الحاكمة من النبلاء ، يتفاوت من الفين الى ثلاثة آلاف فى بيت المقدس · والراجح أن مجموع عدد فئات الفرسان فى انطاكية وطرابلس والرها لم يزد على ذلك (٢) ·

ومن الملاحظ ان الطبقة الحاكمة الارستقراطية من النبلاء والفرســـان ظلت نقية فى بيت المقدس ، على حين أنه حدثت فى الرها وانطاكية مصاهرات مع الارستقراطية المحلية من الروم والأرمن · فالمعروف أن بلدوين الأول ، عندما أسس كونتية الرها ، وانشغل فى توسيع رقعة حدودها ، فضـــل الزواج بأرمينية تدين بالمذهب الأرثوذكسى ، كى يكون اكثر ارتباطا بشعب مسيحى وطنى (٣) · وشجع بلدوين الأول المصاهرة بين الفرنج والسكان الوطنيين ، بعد أن جعل من نفسه مثالا على ذلك ، على انه لم يقدم على الزواج من الوطنيات الا عدد ضئيل من النبلاء والبارونات (٤) · واحتذى بلدوين الثانى الذى تم تتويجه ملكا على بيت المقدس فى ١٤ ابريل عام ١١١٨ م ، حذو بلدوين الاول ، فتزوج من ارمينية تدعى مورفيا (٥) · أما زوجـــة جوسلين الأول ، وزوجة واليران سيد البيرة ، فكانتا أرمينيتين تنتميان الى

---

(١) Receuil des Historiens des Croisades. Occ. Vol. III PP. 298—299

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٦٧ ـ ص ٤٦٨ ·

(٣) Hulme : The Middle Ages, P. 479

(٤) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ ·

(٥) William of Tyres : op. cit. Vol. II PP. 512—513

الكنيسة الأرمينية المنشقة ·وتزوج بلدوين الثالث وعمورى الاول من اغريقيات (بيزنطيات) (١) · ومن المؤكد أن السريان أخذوا دورا فى النبالة اللاتينية ، فمن بين الأسماء لعائلات ما وراء البحار ، ظهر العديد منهم من أصل وطنى وتدعى تلك العائلات آل غراب Les Ghorat وآل المنصور Les Mansoer (٢)

وبوفاة بلدوين الثانى عام ١١٣١ م ، انقضى الجيل القديم للرواد الصليبيين ، اذ فى السنوات التالية ، نصادف جيلا جديدا ، على استعداد لان يتلاءم مع أساليب الحياة الشرقية ، بخلاف القادمين من الغرب ، المشهورين بالميل الى الاعتداء والقتال ، ولم يكونوا قابلين لتشرب الحياة الشرقية ، ومن هؤلاء ريجنالد شاتيون (٣) · وقد ادرك المسلمون فظاظة الوافدين الجدد الى الارض المقدسة ، والفرق بينهم وبين الذين استقروا ، فوصفهم اسامة بن منقذ : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية ، أجفى اخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين » (٤) ·

ولدى وفاة بلدوين الثانى أيضا ، كانت مملكة بيت المقدس مع اقطاعاتها قد اكتملت · ويعتبر عهد بلدوين الثالث من أهم المراحل فى تاريخ الحروب الصليبية ، اذ تم فى عهده (١١٤٣ ـ ١١٦٣ م) اكتمال نمو وتطور الامارات الصليبية ، فاصاب تقاليدها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية ، من التعديل والتغيير ما جعلها تناسب أحوال الشرق · وفى منتصف القرن الثانى عشر بلغت الامارات اللاتينية فى تطورها مرحلة تهيأ عندها ، لكل امارة من الاحوال ما يجعلها تستقل بامورها فقد ترتب على ذلك أن جرى الميل الى اغفال الروابط الاقطاعية ، ولم تعد لملك بيت المقدس من مكانة الا باعتباره مقدم الأسواء Primus inter pares (٥) ·

على ان الارستقراطية الحربية ، كانت هى الطبقة الحاكمة بين الفرنجة· ومن الطبيعى ان الحرب كان هو لشغل الشاغل لتلك الارستقراطية ، ووجود

---

(١) Miller : op. cit. P. 523

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique Vol. I. P. 241

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ ·

(٤) الاعتبار ، ص ١٣٤ ·

(٥) الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص ٦٢٣ ـ ص ٦٢٤ ·

تلك الطبقة يلقى ضوءا على طبيعة الاستقرار اللاتينى · وقد اعتمدت تلك الطبقة على القلاع والحصون التى كانت تمثل الأساس المادى للسيادة (١) ·

والصفات التى يجب أن يتحلى بها الفارس ، التمسك باهداب الفضيلة، والقدوة الحسنة فى تصرفاته ، اذ ان الفروسية تعنى لدى الفارس الحرب والعقيدة والبسالة ، وكل عامل من تلك العوامل على التوالى يؤكد الخصال الضرورية للفارس الحقيقى · فعلى العامل الحربى ارتكزت الفضائل الاولى للفروسية وهى ثلاث : « الشجاعة والاخلاص والكرم ، ومن العقيدة اشتقت الفضائل الثانية وهى الاخلاص للكنيسة والطاعة والعفة ؛ أما الفضائل الثلاث الاخيرة التى تأتى فى المرتبة الاخيرة ، فهى اجتماعية بطبيعتها : الكياسة والتواضع والاحسان (٢) وكان جزاء الفارس الذى يتخلى عن تلك المبادىء الانسانية رادعا ، فقد روى لنا جوانفيل أن أحد الفرسان فى قيسارية ، امسكوة فى بيت من بيوت العاهرات ، فخبروه ـ وفق عادات البلد ـ بين أن تأخذ المرأة العاهرة بمقوده فى المعسكر وهو فى قميصه ، وقد شدته بحبل تجريسا له ، وبين أن يتخلى عن حصانه وسلاحه ويطرد من الجيش ، فآثر الفارس التخلى عن فرسه وسلاحه وترك الجيش (٣) ·

وقد لعبت النساء النبيلات دورا هاما فى الامارات الصليبية · فقوانين مملكة بيت المقدس لم تحرم الاناث من وراثة العرش ، وقد أدى التنافس والتكالب على الوارثات النبيلات الى وجود مشاكل سياسية خطيرة فى المملكة (٤) كان لها اخطر النتائج · فالبعض من الفرسان المغامرين المفلسين ، والأبناء الصغار من الفرسان الذين ليس لهم اقطاع ، وفدوا الى الشام الفرنجية ليجربوا حظهم مع النبيلات صاحبات الاقطاع · وقد نجح فى ذلك جاى لوزيجنان ، مما أدى الى غيرة المنافسين الأقل حظا · ويروى أن كارثة حطين التى أدت الى سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧ م فى ايدى المسلمين ، كان سببها المباشر انتقام رجل انجليزى يسمى جيرارد دى ريد فورد ، فشل فى طلب

---

(١) Small : Crusading Warfare. PP. 60—62

(٢) Hearnshow : Chivalry, P. 180

(٣) حسن حبشى : القديس لويس ، ص ٢٢٤

(٤) Miller : op. cit. P. 521

يد امرأة • فقد أتى جيرارد الى الارض المقدسة كفارس لا هدف له ، يلتمس حظا موفقا • فوعده ريموند الثالث صاحب طرابلس بان يزوجه من القاصرة وارثة البترون الثرية بصفته الوصى عليها • ولكن وصول احد أثرياء بيزا غير الوضع ، فقد أتى بميزان وضع السيدة الوارثة فى احدى كفتيه ، وفى الكفة المقابلة اكياس الذهب ، وأعطى للكونت وزنها ذهبا ، وبالطبع زوجه من وارثة البترون التى يبدو انها كانت ذات جمال وافر • ولم ينس الرجل ذلك الصدود • وحالفه التوفيق فى مجال آخر ، فقد التحق فارسا بهيئة الداوية ، وتدرج فى سلم الوظائف الكبرى الى أن صار صنجيلا ثم بعد ذلك مقدما للهيئة • ولكنه لم ينس مطلقا أن ريموند خدعه مرة ، فرد اليه الصفعة ليلة حطين ، بأن حث الملك الضعيف على رفض استراتيجية ريموند (١) • وثمة مثال آخر لفارس محظوظ ، وهو رينودى شاتيون ـ الذى عرفه العرب باسم ارناط ـ ، الذى أتى الى الشام سنة ١١٤٧ م ليجرب حظه ضمن حاشية لويس السابع ملك فرنسا ، وقد كان ابنا اصغرا لا اقطاع له • واستطاع ارناط الزواج بالارملة الاميرة كونستانس الوصية على الوريث الشرعى لامارة انطاكية ، فحكم الامارة لصالح ابن الزوجة • ويبدو أن ذلك الزواج كان غير متكافىء ، فانتشرت حوله الشائعات المحلية ، خاصة من البطريرك الذى عارض ذلك الزواج • فما كان من المغامر الفرنسى الا ان قام بتجريد البطريرك من ملابسه، ولطخه بالعسل، وتركه وليمة للذباب خلال يوم صيف طويل (٢)• وقدر لارناط أن يقع فى اسر المسلمين أثناء قيامه بحملة لسرقة الماشية ، وبقى سجينا فى حلب مدة خمسة عشر عاما • وبعد ان اطلق سراحه ، وجد ان زوجته قد توفيت ،وان ابن زوجته اعتلى عرش انطاكية • ومن ثم تطلع باحثا عن وريثة أخرى ، فوجد فرصته المنشودة فى البارونة الارملة صاحبة الاردن (٣)•

وعلى أية حال ، فقد عاشت الطبقة الحاكمة من النبلاء والبارونات والكونتات والفرسان ـ فيما عدا التجارة والحرب ـ عيشة اميل الى الدعة

---

(١) Miller : op. cit. P. 522

(٢) Ibid : Loc. cit.

(٣) Miller : op. cit. PP. 522—523

والتراخى · وقد دفعهم الى ذلك توفر وسائل الراحة ، والفراغ الكبير · فلم تكن ايامهم كلها حروبا ، بل كانت فترات السلم خلال وجود الكيان الصليبى أطول من فترات الحروب · عاشوا فى قصور فخمة ، حتى قلاعهم وحصونهم التى كان الغرض الاول منها دفاعى، قاموا بتجهيزها بوسائل الراحة والترفيه· وسنرى فيما بعد أن أولئك الفرنجة قلدوا المسلمين فى الاستمتاع بالحياة · ولا عجب فى ذلك ، فالمسلمون أصحاب حضارة روحية ومادية وفكرية عريقة ، لم تشاهدها جيوش الزحف الصليبى من قبل ·

ومن وسائل الترفيه عند النبلاء الحمامات الشرقية ، والمقامرة ، وسماع المغنيين ، ومشاهدة الرقص ، وعرض المسرحيات عند التتويج · كذلك انتشرت لعبة النرد ، وكان بلدوين الثالث يقضى معظم وقته فى ممارسة تلك اللعبة ؛ وفى الشمال ، فى انطاكية والرها ، حرص أمراءهما على حمل صناديق النرد خلال القيام بغزوات أو اغارات ضد المسلمين ، مما أدى الى اضعاف الروح المعنوية لدى العديد من ضباطهما · وبالاضافة الى ذلك ، زاول الامراء الصيد بالباز ، على الطريقة العربية ، وكان الصيد من التسليات المفضلة لديهم (١)·

٢ ـ طبقة الافراخ (البولانيون) :

وتعنى طبقة الافراخ أو البولانيون Pullani الابنـــاء المنحـــدرين من الزيجات المختلفة ، بين الفرنجة والمسيحيين الوطنيين من ارمن ويعاقبة وسريان وغيرهم ، وقد كثرت تلك الزيجات خاصة فى المدن (٢) · وممـــا لا شك فيه أن الزواج المختلط بين الفرنجة والوطنيات السوريات كان نادرا للغاية (٣) ، كما أن تزاوج الفرنجيات من السوريين كان اكثر ندرة ·

وقد تناول الكتاب المعاصرون وصف البولانيين بعبارات بعيدة عن الاطراء · فأسقف عكا جاك دى فيترى وصفهم قائلا : « انهم تربوا فى الترف ،

---

(١) Ibid., P. 530

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique. Vol. I P. 241

(٣) Grousset : L'Empire Du Levant. pp. 315—316.

وهم نموذج للنعومة والتخنث ، اعتادوا التردد على الحمامات الشرقية ، بدلا من التوجه الى ساحات المعارك ، بهم ميل الى الرفاهية ، وارتداء الاثـــواب الناعمة كالنساء ؛ كسالى خاملون ، جبناء » (١) ٠

وكان البولانيون على استعداد لعقد الصلح مع المسلمين ، والعيش معهم فى سلامة ؛ واذا حدثت مشاجرات داخلية بين البولانيين ، فانهم مالوا الى طلب المساعدة من المسلمين بدلا من الصليبيين ٠ ولطبيعتهم ـ أو لمصالحهم ـ عارضوا وصول الوافدين الجدد من الصليبيين ، ذلك لأن الحرب ستتدخل فى شئونهم ، وتعطل مصالحهم التجارية مع المسلمين (٢) ٠

أما عن الحياة العائلية ، فقد قلد البولانيون المسلمين ، فنســـائهم محجبات ، ولم يسمحوا باختلاط الرجال مع النســـاء ، واذنوا لزوجاتهم بالذهاب الى الحمامات ثلاث مرات فى الاسبوع ، والتردد على الكنيسة مرة واحدة فى السنة (٣) ٠

من ذلك يتبين لنا أن جاك دى فيترى قد جاوزه الصواب فى مهاجمتـــه الطبقة البولانية ، وانتقاده لها بشدة ٠ فقد نسى ذلك الاسقف ان الجيل الجديد المهجن من البولانيين ، لم ينشأ فى يوم وليلة ، ولكنه جاء نتيجة استقرار الصليبيين فى الأرض المقدسة ، واختلاطهم بأهالى البلاد ، بعد أن استوعبوا عاداتهم وتقاليدهم ، وتخلوا عن تعصبهم ٠ وقسوته فى الكتابة لم تقتصر على الغربيين فقط ، بل انصبت أيضـــا على مواطنى الجمهوريات الايطاليـــة والسوريان وغيرهم ؛ وربما كان تعصبه كرجل دين جعله يصدم فى شعوره ؛ ومما لا شك فيه أن تشهيره يوضح التناقض القديم بين الروح الصليبية والروح الاستعمارية (٤) ٠ وشدما اختلف وصف جاك دى فيترى عن الوصف الذى تركه لنا فوشيه دى شارتر ، Foucher de Charterمؤرخ الحملـــة

---

(١) Miller : op. cit. pp. 523—524.

(٢) Ibid. p. 524.

(٣) Loc. cit.

(٤) Grousset : Histoire des Croisodes. T. III p. 197—199

الصليبية الأولى ، فقد قال عن الصليبيين الذين اندمجوا مع الاهالى الوطنيين: « الآن صرنا ـ نحن الذين كنا غربيين ـ شرقيين ، ومن كان منا ايطاليا أو فرنسيا ، اصبح فى هذه البلاد جليليا أو فلسطينيا · والذى كان من مواطنى ريمس أو تشارتر أصبح الآن صوريا أو انطاكيا · لقد نسينا الاماكن التى ولدنا فيها · وأكثرنا لايعرفها ، بل لم يسمعوا بها · ولكل منا بيته واهله ، كما لو أنه ورثه من أبيه أو من شخص سواه · وتزوج بعضنا لا من بنات أوطاننا وانما من سوريات وأرمنيات ، وحتى من مسلمات متنصرات · واصبح من كان هنا يعد اجنبيا ، مواطنا ، ومن كان مهاجرا صار من أهل القرار · وفى كل يوم يلحق بنا الى الشرق أقارب وأصدقاء ، تاركين وراءهم كل ما كان فى حوزتهم وهم فى الغرب · واما من كانوا فقراء هناك فقد اغناهم الله هنا · ومن كان خاوى اليدين الا من دريهمات معدودات ، أصبح لديه من القطع الذهبية مالا يحصره عد · ومن لم تكن لديه قرابة أصـــبح يمتلك ـ والمعطى هو الله ـ مدينة برمتها · فلماذا نعود اذا الى الغرب ما دام الشرق يهيىء لنا كل هذا ؟؟ (١) ·

ومهما كان الامر ، فان البولانيين دليل واضح على أن البيئة الشرقية قد أذابت عددا من الغربيين الاوروبيين فى بيئتها ، وهضمتهم · وليس بغريب أن نشاهد فى الوقت الحاضر ، نساء ورجالا من ذوى العيون الزرق والشعور الاشقر فى مدن مثل أجدين (أهدين) فى شمال لبنان وبيت لحم والعريش · وهناك اسر اغلبها لبنانية نصرانية ، مثل عائلة كرم وفرنجية وصليبى ، قد حافظت على تقاليد انحدارها عن أسلاف فرنج ، ويقال أن أسماء بعض الاسر الاخرى كصوايا مشتق من سافوا Savoie، والدويهى من de Douai والبردويل من بلدوين (٢) ·

---

(١) Grousset : op. cit. Vol. I p. 287

برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ص ٢١٦ ـ ص ٢١٧ ·

(٢) Hitti : History of the Arabs. pp. 669—670.

٣ ـ طبقة الأحرار أو البورجوازية :

شكل الاحرار أو البورجوازية فى مملكة بيت المقدس طبقة مميزة متفوقة، أرستقراطيه ، وهم أولئك الرجال من العامة ، الذين اشتركوا فى الحـــروب الصليبية برفقة البارونات والكونتات ، كذلك من الاوروبيين الوافدين الى بلاد الشام بهدف ممارسة التجارة (١) • وقد احتشد البروجوازية فى المـــدن الساحلية وعدد معين من المدن الداخلية ؛ وادت الثروة التى حصلوا عليها الى اضفاء اهمية لهم (٢) • ويرى البعض ان الطبقات البورجوازية ، لم يكن لها فيما يبدو ، دور فى التجارة الدولية ، بل قصرت نشـــاطها على اقامة الدكاكين ، وصناعة السلع اللازمة للاستهلاك المحلى (٣) • وعلى الرغم من أن طبقة البورجوازية كانت فى منزلة أدنى من طبقة النبلاء ، الا انها احتلت مكانة اسمى من السكان الوطنيين (٤) •

وكان للبورجوازية سلطة قضائية خاصة ، تشبه السلطة القضـــائية للسادة الاقطاعيين ، وتألفت محكمتهم من اثنى عشر من المحلفين برئاسة موظف ملكى يـــدعى فيكونت Vicomte ؛ والجدير بالذكر أن البورجوازيين تمكنوا بمساعدة ملوك بيت المقدس من الوصول الى رتبة الفارس (٥) • ذلك أن البورجوازى الذى كان يستطيع حمل السلاح اذا اقتضت الحال ، فانه يستطيع الارتقاء الى النبالة ؛ ففى عام ١٩٥٢ م استطاع بورجوازية بيت المقدس ، خلال غياب الجيش الملكى ، ان يردوا هجوم تركمان ياروق ببسالة ؛ وفى عام ١١٨٧ م منح باليان الثانى Balian II d'Ibelin رؤساء بورجوازية

---

(١) Longnon : op. cit., p. 134

(٢) Ibid. pp., 134—135

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦١٦ •

(٤) Lamb : The Crusades, p. 382

(٥) Longnon : op. cit. p. 135

Lammens : op. cit. Vol. I p. 240.

مدينة بيت المقدس نقب فارس ، حتى يستطيعوا الدفاع عن المدينة ضد صلاح الدين الأيوبى (١) ٠

وقد تمتعت طبقة البورجوازية الفرنجية فى الشام بوضع يفوق نظيرتها فى فرنسا ابان الحروب الصليبية ، اذ من الواضح أن طبقة البورجوازية فى الغرب ، اتسعت اهميتها بالضآلة اول الأمر (٢) ٠ فقد صدر قانون فى السنوات الاولى من الاحتلال الصليبى ، حرم على الطبقة البورجوازية امتلاك الاراضى فى الشام ، ولكن هذا القانون سرعان ما ابطل ، اذ كان من المستحيل منع التجار الفرنسيين والايطاليين والفلمنك والألمان والانجليز ، من الحصول على حيازات صغيرة من الاراضى الزراعية ، مثل الحدائق والكروم والبساتين (٣) ٠

واستطاعت تلك الطبقة فى الشام أن تؤلف مجتمعا متمتعا بالحكم المحلى الذاتى ، قادرا على مزاولة التجارة من جهة ، وممارسة الحرب من جهة أخرى٠ ومن المشاهد ، أنه كان للبورجوازية فى الشام ، قوة عسكرية محلية تدعى الميليشيا البورجوازية Burgher Militia ، كان من الممكن أن تحارب جنبا الى جنب مع جيوش البارونات وفرسان الهيئات الدينية الحربية ، لولا ما اتصفت به تلك الجيوش وأولئك الفرسان ، من كبرياء اجتماعى حال دون ذلك (٤) ٠ ولم تكن البورجوازية ملزمة بتقديم أية واجبات للسيد الاقطاعى ، وأيضا لم تكن مجبرة على تقديم الخدمة الحربية له ؛ وكل ماعليها أن تجهز عددا معينا من فرق المشاه للجيش الصليبى (٥) ٠ هذا واضطر أعضاء الطبقة البورجوازية ، بعد استقرارهم بالشام الى التزاوج من المسيحيين الشرقيين المحليين ــ وبخاصة الأرمن ــ ؛ مما أدى الى ظهور طبقة البولانيين أو الافراخ فى منتصف القرن الثانى عشر (٦) ٠

---

(١) Grousset : L'Empire du Levant. pp. 314—315.

(٢) Lamb : op. cit. p. 382

(٣) Thompson : op. cit. Vol. I. p. 399

(٤) Ibid. p. 400

(٥) Chalandon : op. cit. pp. 302—303

(٦) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٥ ٠

٤ ـ الرقيق والأقنـــــان :

من المعروف أن النظام الاقطاعى فى الغرب الاوروبى قام على أســاس العلاقة بين حر وحر ، وتبعية سيد لسيد آخر أقوى منه ، وذلك فى ظل اطار محكم من الحقوق والواجبات المتبادلة • أما النظام السنيورى Seignorial System فعلى العكس ، فهو يمثل علاقة سيد حر وقن خاضع مقيـــد بالارض غير حر ، لابين تابع حر ومتبوع حر • وهناك من الاسباب التى جعلت القن ارتبط بالارض فى الغرب الاوروبى ، فقد كان عليه أن يقوم بخدمات معينة ، ودفع ضرائب محددة للسيد الاقطاعى ، فاذا عجز عن الوفاء بهذه الخدمات والاموال ، فانه فى هذه الحالة يكون عرضة لأن يلفظه المجتمع الذى يعيش فيه ، عن طريق البيع أو الاستبدال أو الطرد (١) •

وكانت عقوبة الطرد أشدها ، لأن معنى طرد القن أنه سيصبح دون سيد يحميه ، مما يعرضه لأخطار بالغة ، فى عصر اشتهر بالفوضى وعدم الاستقرار •

والواقع ان آلاف الفلاحين عاشوا فى الغرب الاوروبى عيشة منحطة ، وتكونت طبقة العبيد فى اساسها من العبيد Slaves والاقنان Serfs الذين تقاربت ظروفهم جميعا ، فاختلطوا وتداخلوا عن طريق ذوبان العبيد وانصهارهم وسط محيط الاقنان • ومن الملاحظ ان القن لم يكن عبدا بمعنى الكلمة ، لأن سيده لايستطيع التصرف فيه بالبيع مثلا أو اذيته جسمانيـا دون ذنب أو محاكمة • وعلى هذا الاساس فهو لم يكن عبدا ولا حرا ، وانما كان بين هذا وذاك (٢) •

وقد فتحت الحروب الصليبية الباب على مصراعيه أمام عشرات الألوف من الاقنان ، الذين تركوا أراضيهم بحجة الاشتراك فى النشاط الصليبى (٣) •

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٧١ ـ ص ٧٢ •
(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٩ •
(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٧ •

والواقع أن الباعث الدينى لم يكن الدافع الاساسى لاسهامهم فى الحركة الصليبية ، وانما دفعهم الى ذلك الامل فى حياة جديدة أفضل من حياة الذل والهوان والشقاء فى الغرب الاوروبى (١) ٠

وكان من المستحيل ان يستغنى الفرنجة بالشام عن الرقيق والاقنان ، بعد ان اعتادوا فى الغرب الاوروبى على وجود تلك الطبقة ، ليعمل افرادها فى فلاحة الارض وغيرها من الاعمال الشاقة ٠ وكانت الغالبية العظمى من الرقيق فى الشام ـ على عصر الحروب الصليبية ـ من الأقنان ٠ واذا كانت أوضاع العبيد والأقنان قد أخذت فى التحسن فى الغرب الاوروبى خلال القرن الثانى عشر ، وأضحى فى استطاعة الكثيرين منهم أن يتحرروا ويمارسوا حقوقهم المشروعة فى الحياة ، فان الوضع لم يكن كذلك ببلاد الشام ، ذلك أن العبيد والاقنان قاسوا الكثير من الاجحاف والسخرة والظلم ، بسبب تعسف الصليبيين ، مما جعلهم يترحمون على أيام حكم المسلمين (٢) ٠

وقد هبط أصحاب الملكيات الصغيرة من اهل الشام الى القنانة (عبودية الأرض) ، اى صاروا أقنانا فى أراضى السادة الاقطاعيين الجدد ؛ والقن فى الشرق كان أكثر شقاء وتعاسة من زميله فى الغرب ٠ ففى الغرب تحسن القن، وصار يعيش فى ظروف عيش مخففة ، اما فى الشرق فقد تحسرت طبقة الاقنان على أيام البيزنطيين والعرب ، وهى أيام عصرهم الذهبى ٠ ويبدو ان حظ الأقنان من أهل الشام العاملين فى أراضى الكنيسة ببلاد الشام ، لم يكن احسن من العاملين فى أراضى السادة الاقطاعيين ، فالكنيسة سواء فى أوروبا ثم آسيا كانت ترهق العاملين فى أرضها ، بالمهام الثقيلة الصعبة (٣) ٠

ومن الرقيق الذى كان تحت سيطرة الفرنجة ، بعض المسلمين الذين وقعوا فى الاسر خلال زحف جيش الحملة الصليبية الاولى الى بيت المقدس ،

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٧ ـ ص ٣٩ ،
Boissonade : Life and Work in Med. Europe, p. 147

(٢) Thompson : op. cit. pp. 397–398

(٣) Ibid. p. 398

من ذلك سكان قيسارية ، اذ يروى لنا فوشر دى شارتر ان الذكور من اهالى تلك المدينة كان عددهم قليلا ، وعوملوا برفق ، اما النساء فكان عددهن يفوق عدد الرجال ، فتم بيـــع بعضهن ، وبقى البعض الآخـــر لادارة أحجـــار الطواحين (١) • وقد انتشرت فى البيئة الصليبية عادة الفها بعض جماعات المسلمين ، وهى استعمال الخصيان فى الحريم ، حيث يقومون بخدمة نساء النبيل وبناته ، بينما يحرم ذلك على الخادم الاوروبى أو العبد من أى جنس كان • وقد سخر الصليبيون الاسرى المسلمين ، فمن وقع فى أيديهم ، أرغم للعمل فى دار السيد الاقطاعى ، وأرغم على احتراف الزراعة فى ضياعه ، والقيام بالحرف الصناعية التى يحتاجها ، وقهره على العمل فى البناء (٢) •

ومن العادات التى تمسك بها الفرنجة اشد التمسك ، ضرورة تنصير العبد اذا عاش وسط مسيحيين ، وكان سيده فى الوقت ذاته مسيحيا ، وليس من المستبعد أن يجبروه على اعتناق مذهبهم الدينى الخاص ، فاذا تنصر لم يجز المشرعين بيعه اصلا لمسلم مهما اغلى ثمنه ، ويرون فى ذلك حطة للصليبى، ان لم يكن خرقا دينيا (٣) • ولايجوز بحال من الاحوال استرقاق النبلاء أو البارونات ، ولكن يحتفظ بهم للحصول على فدية كبيرة •

وعلى أية حال ، فان البناء الاجتماعى للكيان الصليبى بالشام ، تألف من طبقات مختلفة ، غير متآلفة أو منجانســـة ، ظلت متميزة بالفـــوارق الواضحة ، مما أدى الى عدم تماسك الصليبيين بالشام من ناحية ، والحاق الضرر بهم من ناحية اخرى •

---

(١) Richard : Le Royaume Latin. p. 122

(٢) حسن حبشى : نور الدين والصليبيين ، ص ١٤٨ ـ ص ١٤٩ •

(٣) Miller : op. cit. p. 527

حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ •

رابعا ـ المسيحيون الشرقيون :

عاش المسيحيون الشرقيون الى جانب المسلمين فى كنف الدولة العربية الاسلامية ، وتمتعوا فى مجتمعاتهم الخاصة بهم بقسط وافر من التسامح الدينى ، الذى عرف به الدين الاسلامى · وخلال العهود الاسلامية المتتابعة ، مارس المسيحيون الشرقيون طقوسهم فى كنائسهم فى حرية تامة · ولكن اللاتين فى بلاد الشام ، على عهد الحروب الصليبية ، نظروا الى المسيحيين الشرقيين نظرة أخرى ، اذ اعتبروهم منشقين على الكنيسة الكاثوليكية الغربية ، وبمعنى آخر ملحدين (١) ·

١ ـ الموارنة (الطائفة المارونية) :

اختلفت الآراء حول اصل الموارنة ، وانتحالهم لهذا الاسم ، ومن تلك الآراء أنهم جماعة من السوريان اعتنقوا الديانة المسيحية فى ايامها الاولى ، واعتبر القديس مارون أبا وشفيعا لطائفة الموارنة (٢) · وقد عاش هذا القديس الراهب فى أواخر القرن الرابع الميلادى فى شمال الشام ، فى المنطقة الواقعة بين انطاكية وقورس (على مسافة ستين كيلو مترا شمالى حلب) ، وتوفى حوالى عام ٤١٠ م أو حوالى ٤٣٣ م (٣) · والحقيقة ان القديس مارون من شدة زهده ، جذب اليه جماعات من الناس ليلتمسوا بركته ، ويسترشدوا بتعاليمه ، ويقتدوا بسيرته ، واهم المراكز التى التفوا حولها دير القديس مارون ، الذى شيد على ضفاف نهر العاصى فى نواحى أفاميه (٤) · وفى أواخر القرن السابع الميلادى اقيم يوحنا مارون أول بطريرك للموارنة ، ليرعى شئونهم الدينية ؛ وفى عهده برزت أولى الخصائص الوطنية للموارنة (٥) · واتباع هذه الطائفة كانوا من اصحاب المشيئة الواحدة ، وهذه العقيدة تقول أنه كان للمسيح مشيئة واحدة ، قال بها بطريرك الامبراطور هرقل عام ٦٣٨ م ، ليوفق بين عقيدة أصحاب الطبيعة

---

(١) Chalandon : op. cit. pp. 284—285

(٢) يوسف الدبس : الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة الموصل ، ص ٣ ·

(٣) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣١٠ ·

(٤) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ٢٣٦ ـ ص ٢٣٧

(٥) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ ـ ص ٣٠٤ ·

الواحدة (المونوفيزتيون) ، الذين كانوا يشكلون الأغلبيـــة من الرعايا المسيحيين فى الشام ، وبين أصحاب العقيدة الأرثوذكسية الرسمية للكنيسة البيزنطية • وقد كانت هذه هى المحاولة الأخيرة التى قام بها الامبراطور ، ليسد الثغرة التى أوشكت أن تفصل بين الكنيسة السورية والكنيســة البيزنطية ؛ ولكن هذه المحاولـــة ، شأن كل محاولـــة للتوفيق ، باءت بالفشـــل (١) •

والمواطن الاولى للطائفة المارونية ، كما وجدت فى القرن العاشر الميلادى كانت فى وادى العاصى ، لاسيما معرة النعمان وشيزر وحماه وحمص ؛ كذلك وجد الموارنة فى جهات أخرى أقرب الى الشمال كمنبـــج وقنسرين ، ومن المحتمل أيضا أنهم كانوا فى انطاكية • غير أن الموارنة انتقلوا الى جبل لبنان فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى ، بادئين بالهجرة من وادى العاصى الى الجبل من ناحية الشمال ، مجتازين أفامية وحماة وحمص الى أن استقر بهم المقام فى الجبل ، فسكنوا اولا جهاته الشمالية ، ثم تقدموا الى أواسطه ، الى أن بلغوا فى النهاية جنوبه • ويرى البعض أن الاضطهادات التى لقيها الموارنة على يد مخالفيهم ولا سيما اليعاقبة ، كانت السبب فى نزوحهم الى لبنان ؛ ومن الجدير بالذكر ان تلك الهجرات لم تتم دفعة واحدة، بل حدثت فى أزمنة متوالية (٢) •

ومن ناحية السلالة العرقية ، ترجع الطائفة المارونية فى أصولها الىعناصر شتى ، أهمها الموارنة المهاجرون الى لبنان من شمال بلاد الشام ووسطها ، وقد انضم اليهم الاباق والفارين الذين لاذوا بحمى المردة أو الجراجمة الباقين فى لبنان ، بالاضافة الى ماكان هناك من السكان الاصليين (٣) • وقد امتزجت تلك العناصر بمرور الزمن ، وصارت تعرف بالطائفة المارونية ، التى لازال

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ـ ص ٣٠٥ •

(٢) لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ، ج ٢ ، ص٥٠ـص٥٢ •

(٣) لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ، ج ٢ ص ٥٤ •

أتباعها فى أعالى لبنان ، يستخدمون اللغة السريانية الى جانب اللغة العربية (١) ٠

ويعتبر المارونيون آخر من تبقى من أنصار المذهب المونوفيزيتى ٠ وقد حرصت الكنيسة الغربية على مراعاة شعورهم والرفق بهم ، ففى حوالى عام ١١٨٢ م وافق الموارنة أمام بطريرك انطاكية ، على قبول سيادة البابا فى روما ، على شريطة أن يظلوا محافظين على شعائرهم القديمة وتقاليدهم السريانية ، بالاضافة الى أنهم لم يتخلوا عن عقيدتهم التى تجعل للمسيح ارادة واحدة (٢) ٠ ويبدو أن الصليبيين كانوا يرون فى الموارنة قبل اعترافهم بسيادة روما ، أنهم كانوا جماعة ضالة منشقة عن الكنيسة الكاثوليكية ، بالاضافة الى أن القديس مارون اعتبر من المبتدعين طوال خمسمائة عاما (٣)٠

وعلى زمن الحروب الصليبية كان الموارنة خير عون للصليبيين خلال حروبهم ضد المسلمين ٠ فمنذ اللحظة الأولى التى وطأت فيها أقدام الفرنجة بلاد الشام ، اتصل الموارنة بالجيش الزاحف على بيت المقدس ، ولخبرتهم بالحرب وتدريبهم على مختلف الأسلحة المألوفة ، انضمت قوة منهم الى هذا الجيش ، وقاتلت معه جنبا الى جنب ٠ ولا ريب أن الموارنة كوطنيين كانوا خبيرين باهل البلاد ومسالكها والمواقف الحربية ، لاسيما الأساليب الحربية للمسلمين ، قد أفادوا الصليبيين الى حد بعيد ؛ ومنهم من عمل دليلا للصليبيين يرشدهم الى الطرق والمعابر خلال زحفهم، كما عملوا تراجمة لديهم (٤)٠وعندما قدم لويس التاسع الى بلاد الشام حوالى عام ١٢٤٩ م ، اتصل به عدد غفير من الموارنة ، وانخرطوا فى صفوف جيشه ، ويفخر الموارنة بالرسالة التى بعث بها لويس الى امير طائفة الموارنة وبطريركها واساقفتها، فقد جاء فيها أن الموارنة يتمتعون بنفس الحماية التى يتمتع بها الفرنسيون ، ويقبلون فى الوظائف كما

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٨٩ ،

(٢) Cahen : La Syrie du Nord. p. 192
Thompson : Econ. and Soc. Hist. Vol. I p. 399

(٣) يوسف الدبس : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ ـ ص ٢٠٨ ٠

(٤) يوسف دريان : أصل الطائفة المارونية ، ص ٥٣ ـ ص ٥٤ ٠

يقبل الفرنسيون ، واختتمها قائلا : « أما نحن وجميع من يخلفوننا على عرش فرنسا ، فنعد باننا نوليكم أنتم وجميع شعبكم حمايتنا الخاصة ، كما نوليها للفرنسيين بعينهم (١) . » ولا تزال العلاقات الخاصة تربط بين الطائفة المارونية وفرنسا حتى وقتنا الحالى (٢) .

واذا أخذنا فى الاعتبار تعثر مسالك جبال لبنان ، أدركنا أن ذلك جعل الموارنة ينعمون بنوع من الاستقلال . ومما يدل على ذلك أن المسلمين عندما استردوا أنطاكية ، فر العديد من الصليبيين هاربا الى جبال لبنان ، فاستقبلهم بطريرك الموارنة بالترحاب ، الأمر الذى جعل البابا اسكندر الرابع ، يكتب له رسالة شكره فيها على صنيعه ، وفى نفس الوقت يوصيه خيرا بمن لجأ اليه ، وان يحتسبهم كابناء طائفته (٣) .

والحقيقة أن فترة الحروب الصليبية كانت تمثل العصر الذهبى للموارنة، فقد كانوا أحسن حالا وأعظم شأنا . فكنائسهم واديرتهم ومدارسهم ازداد عددها . وأحسوا بالراحة والطمأنينة ، وتوفرت لهم سبل الرزق ، ووجدوا فى كنف الفرنجة التأييد والمحبة (٤) . واحتلوا فى الممالك التى شيدها الفرنجة المكانة الاولى بعدهم ، وكانوا يقدمون على جميع الطوائف المسيحية، ويتمتعون بالحقوق والامتيازات التى تتمتع بها البورجوازية اللاتينية ، بما فى ذلك حق الارض فى مملكة بيت المقدس (٥) .

وقد سمح لرجال الدين الموارنة أن يقوموا بخدمة القداس على مذابح لاتينية ، وأخذت الكنيسة المارونية تتخلى رويدا عن طقسها المألوف لتتبنى الطقس اللاتينى ، وصار رجال الدين الموارنة يتبعون الزى اللاتينى فى لبس الخواتم والقلنسوة التى تشبه التاج وحمل العكاز (٦) .

---

(١) يوسف دريان : المرجع السابق ، ص ٥٤ .
(٢) يوسف الدبس : الجامع المفصل ، ص ٢٠٨ .
(٣) يوسف الدبس : الجامع المفصل ، ص ١٨٨ ـ ص ١٨٩ .
(٤) يوسف دريان : أصل الطائفة المارونية ، ص ٥٣ .
(٥) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٩٢ .
(٦) اسطفان الدويهى : تاريخ الطائفة المارونية ، ص ٢٨٢ .

ومن الواضح أن ظهور الدروز كطائفة جديدة فى جبل لبنان فى منتصف القرن الحادى عشر ، جعل تاريخه منذ ذلك الحين يبدأ فى التركيز على هاتين الطائفتين ، وعلى علاقة احداهما بالاخرى ، نعنى الدروز والموارنة (١) · وقد حاول المارونيون فى مرات عديدة اخراج الدروز من جبال لبنان ، ولكن الدروز الذين يعيشون متناثرين فى قرى عديدة ، كانوا يتكتلون دائما ، ويقفون صفا واحدا أمام الموارنة (٢) ·

٢ ـ الأرمـــن :

اتخذت حركة انتشار الأتراك السلاجقة انتشارا أفقيا من الشرق الى الغرب ، عبر أرمينيه وكابادوكيا وفريجيا وبيثينيا وأيونيا ، حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة · اما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الوسطى ـ حول طوروس وملطية ثم الرها وانطاكية ـ فلم يتجه اليها السلاجقة اول الأمر ، مما أدى الى عزل تلك المنطقة عن بقية بلاد الدولة البيزنطية ، ثم وقوعها بين شقى الرحى فى الصراع القائم بين البيزنطيين والسلاجقة فى آسيا الصغرى (٣) ·

وكانت الامبراطورية البيزنطية ، قد منحت ملوك أرمينية وأمراءها ضياعا واسعة فى اقليم كابادوكيا ، الأمر الذى أدى الى هجـــرة أعداد كبيرة من الأرمن الى ذلك الاقليم فى شرق آسيا الصغرى · ولكن توسع السلاجقة فى كابادوكيا ، جعل الأرمن يبحثون عن مأوى جديد ، فاتجهوا الى اقليم قيليقية الجبلى فى جنوب شرق آسيا الصغرى (٤) · وانتشروا ايضا فى الرها وفى أرباض تل باشر وفى شمال سوريا (انطاكية ، واللاذقية ، وارتـــاح ، وافامية) ·ـ ومع انه لم يكن منهم فى جنوب الشام الا عدد ضئيل ، فقد هاجر الى مصر أعداد كبيرة من الارمن ، والتحقوا بالجيش الفاطمى ، وبفضلهم تغلب

---

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣١٤ ـ ص ٣١٥ ·

(٢) Nerval : Voyage en Orient. T. II p. 8

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٩٧ ·

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٩٨ ·

الوزير بدر الجمالى ، وهو أرمنى اعتنق الاسلام ، وابنه الأفضل ، على العناصر المتمردة فى الجيش من الترك والسودان (١) ٠

والجدير بالذكر ان الارمن استخفوا بالدولة البيزنطية بعد الهزيمة المنكرة التى منيت بها فى مانزكرت عام ١٠٧١ م ، وفى نفس الوقت عملـــوا على استرضاء السلاجقة ومهادنتهم ٠ فقد قبلوا الخضوع لحكم ملكشـــاه السلجوقى ، مقابل الافادة مـــن السلام والأمان ، ولكن اذا هبت الفوضى دفعتهم مسيحيتهم وعنصريتهم الى الانضمام لجانب بيزنطه (٢) ٠

ومن الواضح أن الارمن رحبوا بمجيء الصليبيين الى الاراضى المقدسة ، فبعد ان عبر قواد الحملة الصليبية الاولى جبال طوروس ، وقع بينهم الخلاف واخذ كل منهم يخطط الامور لصالحه الخاص ، فتحول بلدوين شـــرقا، واحتل الرها وهى آنذاك تحت حكم الارمن فى أوائل سنة ١٠٩٨ م (٣) ٠ وهكذا تأسست اولى الامارات الصليبية فى الشرق الادنى ٠ والمعروف ان العنصر الارمنى كان هو المسيطـــر على الرها عند وصـــول الصليبيين ، واستطاع القواد الفرنجة فى ذلك الحين ، أن يقدروا الصفات الحربية التى تمتع بها العنصر الارمنى ، ومن ثم ارتبطوا به ارتباطا وثيقا ، ويمكن القول أن امارة الرها خلال عمرها القصير (١٠٩٨ ــ ١١٤٦ م) كانت امارة فرنجية ــ ارمينية (٤) ٠ أما تانكرد وهو أحـــد القواد الذيـــن قادمين من جنوبى ايطاليا وصقلية ، فتحول غربا ، ودخل قيليقية ، وسكانها كذلك من الارمن ؛ واحتل مدينة طرسوس وسائر نواحيها ٠

وعندما اقترب الصليبيون من انطاكية سنة ١٠٩٧ م ، رحب الارمن بهم ترحيبا بالغا (٥) ؛ والمعروف ان سكان انطاكية غالبيتهم العظمى ــ مثلمـــا

---

(١) الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص ٩ ٠

(٢) Cahen : La Syrie du Nord. p. 190

(٣) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ ٠

(٤) Grousset : L'Empire du Levant. p. 316

(٥) Small : Crusading Warfare. p. 46

كانوا خلال السيطرة البيزنطية ـ من السوريان والارمن • وقد أحس الاتراك بالخطر الناجم عن هذا الوضع ، ذلك أن اقتراب الفرنجة جعل ياغى سيان أمير انطاكية ، يشعر بالخوف من المسيحيين الموجودين فى المدينة (١) ، ويشك فى نواياهم تجاهه • وعلى الرغم من ذلك ، فقد شك الفرنجة أنفسهم فى ولاء الأرمن خلال حصارهم لأنطاكية عام ١٠٩٧ م ، وظنوا أنهم يتجسسون لصالح الحامية التركية ، وينقلون المؤن الى داخل المدينة (٢) •

وفى الوقت الذى نشأت مملكة أرمينيا الصغرى الصليبية فى أواخر القرن الثانى عشر فى أقليم قيليقية ، أى فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى ، استغل ملوك هذه المملكة موقع مملكتهم بين آسيا الصغرى من ناحية ، وشمال الشام من ناحية أخرى ، فى تقديم العون للصليبيين بالشام• ولم يكد المغول يستقرون فى فارس حتى حالفهم ملوك أرمينيا الصغرى ضد المسلمين فى العراق والشام ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس انزل بالارمن وحلفائهم عدة ضربات فى أعوام ١٢٦٦ ، ١٢٧٣ م (٣) •

وقد اشتهر الأرمن كقوم محاربين ، مثل الموارنة • وفى القرن الثانى عشر ، انخرطوا فى صفوف جيوش الفرنجة كخيالة ومشاة ، لمحاربة المسلمين فى شمال الشام (٤) • وبسبب قرب مملكة أرمينيا الصغرى من امارة الرها ، فانهم على الدوام كانوا على اهبة الاستعـــداد لنجدة لاتين الرهـــا ومساعدتهم (٥) •

والواقع ان كونتيه الرها ، تميزت بوضع معين اختلف عن بقيـــة الامارات الصليبية • فقد اعتبرت امارة حاجزة ، تحمى انطاكية من المسلمين، وكانت هذه الكونتية اكبر مساحة من امارة انطاكية ، اذ امتدت على جانبى

---

(١) Grousset : Histoire des Croisades. T.I. p. 73

(٢) Gesta Francorum, p. 29
Small : op. cit. p. 47

(٣) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ١٠٢ ـ ص ١٠٣ •

(٤) Small : op. cit. p. 47

(٥) Miller : Essays on the Latin Orient. p. 526

نهر الفرات من راوندان وعينتاب الى موضع غير معروف بالجزيرة ، الى الشرق من مدينة الرها • وافتقرت الرها الى حدود طبيعية ، ولهذا صارت الامارة كلها عبارة عن منطقة حدود ، لم تنقطع بها الحروب • ومع أن سكانها أساسا من المسيحيين ، سريان ويعاقبة وارمن ، فقد دخل فى نطاقها مدن اسلامية ، مثل سروج (١) •

وقد سار الأرمن على النظم الاقطاعية للصليبيين ببلاد الشام ؛ ومن الجدير بالذكر أن وثائق انطاكية أتت الينا من خلال الأرمن ، فمحكمة سيس كانت تشبه محكمة بيت المقدس ، لها قهرمان (سنجال) • ومارشال وكوندستابل (كونستابل) (٢) • واستخدم ملوك أرمينيه لغتهم القديمة التى لم يتكلم بها غيرهم ؛ وقد اختلفت الكنيسة التى يتبعها الارمن عن الكنائس الاخرى الموجودة بالشام على عصر الحروب الصليبية ، اذ وجد اختلاف مذهبى بين كنيستى أرمينيه وبيزنطه من جانب ، وأرمينيه والحكومات اللاتينية من جانب آخر (٣) • وعرفت كنيسة الارمن بالكنيسة الجريجورية (٤) •

٣ ـ الأقليات الدينية :

والاقليات الدينية هى التى كانت تعيش مع المسلمين جنبا الى جنب ، قبل مجىء الصليبيين الى الشام • وتتمثل تلك الاقليات الدينية فى طبقة المسيحيين الشرقيين المحليين ، والروم ، والسوريان ، واليعاقبة ، والاقباط ، واليهود ، والسامرة ، وغيرهم •

ولا ريب فى أن المسيحيين الروم كانت لهم عصبية فى بلاد الشام ، قبل غزو الاتراك السلاجقة لتلك البلاد ، ومن الطبيعى أن تكون عواطفهم مع الدولة البيزنطية أو دولة الروم (٥) ، وليس من المؤكد أن يرجع الروم الى

---

(١) Cahen : La Syrie du Nord. pp. 110–112

(٢) Miller : op. cit. p. 526

(٣) Iorga : Breve Hist. de la petite Armenie. p. 20

(٤) Grousset : L'Empire du Levant. p. 311

(٥) Cahen : op. cit. p. 190

أصل بيزنطى ولكنهم مجموعة من أهل الشام ، مرتبطين بالتقاليد البيزنطية، ومن المطالبين بالامبراطورية البيزنطية والمرتبطة بكنيستها (١) • وقد أدى ميلهم الطبيعى للبيزنطيين أن شك الصليبيون فى اخلاصهم وولائهم ، فأثناء سقوط بيت المقدس فى أيدى صلاح الدين الايوبى عام ١١٨٧ م ، اتهم هؤلاء المسيحيون بالتحالف مع المسلمين (٢) • ومن الواضح أن فئة الروم الارثوذكس ، كانوا أبغض فئات المسيحيين الشرقيين الى الصليبيين ، بسبب التخوف من تآمرهم مع الدولة البيزنطية ضد مصالح الصليبيين • وكان من المفروض أن يقوم الصليبيون بطردهم من اراضيهم ، ولكنهم استبقوهم لمهارتهم اليدوية ، وقيامهم بالخدمات والاعمال الحقيرة التى أنف الصليبيون الغربيون من تأديتها (٣) •

وخلال الزحف الصليبى على بلاد الشام ، ارتاب المسلمون بدورهم فى ولاء العناصر المسيحية الوطنية بالشام ، سواء كانت من أصل سوريانى أو بيزنطى بل وصل الامر الى اتهامهم بانهم الذين استدعوا الفرنجة فى الحملة الصليبية الاولى • ولهذا السبب قام المسلمون بابعاد المسيحيين الوطنيين حتى لايطعنوا من الخلف ، ولم يكن المسلمون اسعد حالا من المسيحيين الوطنيين ، فعقب سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين ، قاموا بدورهم بابعاد المسلمين • ومن ثم اقفرت مملكة بيت المقدس من السكان والايدى العاملة ، لأن اللاتين لم يؤلفوا الا اقلية عددية لاتستطيع الدفاع عن نفسها (٤) • ومن اجل تعمير المملكة ، عمل بلدوين الاول على استدعاء المسيحيين الوطنيين واعدوا اياهم بالمعاملة الحسنة ، واعفائهم من الضرائب• ولهذا نزح العديد منهم من البلاد المجاورة الخاضعة لحكم المسلمين ، الى مملكة بيت المقدس استجابة لنداء بلدوين ؛ وقد أدى ذلك الاجراء الحكيم الذى قام به الأخير ، أن اعتبر بحق المؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس (٥) •

---

(١) Lammens : op. cit. T.I. pp. 246—247

(٢) Grousset : op. cit. p. 313

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٩٢ •

(٤) Grousset : Histoire des Croisades. T.I. pp. 284—285

(٥) Ibid. pp. 285—286

Miller : op. cit. pp. 191—192

أما اليعاقبة ، فقد اعتنقوا المذهب المونوفيزيتى ، وهم من أصـــل سريانى ، ولغتهم العربية ، ويمثلون العنصر الرئيســـى بين الطوائف المسيحية الشرقية ببلاد الشام ، فيما عدا امارة الرها التى تسيطر عليها غالبية من الارمن ، وانطاكية التى تسود فيها غالبية من الروم (١) • وتمثل الكنيسة المونوفيزتية غالبية السكان المسيحيين ببلاد الشام ، فلها اساقفتها فى انطاكية وكفر طاب والرها وسروج وسميساط ومرعش • وللمونوفيزتيين أديرة فى طوروس ولهم اتباع عديدون فى الشام (٢) •

أما النساطرة ، فهم من المسيحيين الشرقيين ، ينتمون الى أصل سريانى مثل اليعاقبة المونوفيزتيين ، ولكنهم يرون أن الطبيعتين الالهية والبشرية، ظلتا منفصلتين فى يسوع المسيح • وهم أقل عددا فى الشام ، وتتواجـــد مراكزهم الرئيسية فى آشور والعراق ، وكان لهم فى بيت المقدس رئيس اساقفة ، يتبع مقر البطريرك (الكاثوليكوس Catholicos) الخاص بهم فى بغداد • وهم يعيشون فى طرابلس وعكا وبيروت وجبيل (٣) •

وعلى الرغم من أن المسيحيين الوطنيين ، لم يكونوا فى كل الاحوال ، معادين للقوى الصليبية بالشام ، بل احيانا كانوا يميلون الى الصليبيين ، بحكم النزعة الدينية • لكنهم أثاروا غيظ جيمس دى فيترى فى أوائل القرن الثالث عشر • ففى الوقت الذى ظهرت الدعوة للحملة الصليبية الخامسة فى الغرب الاوربى ، لم تكن الانباء فى الشام بالغة التشجيع ، ومن ثم قـرر البابا هونوريوس الثالث ارسال جيمس دى فيترى الى فلسطين ، ليتولى أسقفية عكا ، فضلا عن أثارة شعور اللاتين (٤) • وبمجرد أن وصل الى عكا فى نوفمبر عام ١٢١٦ م ، بدأ العمل ، فرفع الى البابا تقريرا مفصلا عن وضع الصليبيين فى الشام • وجاء فى ذلك التقرير أن المسيحيين الوطنيين يكرهون اللاتين ، ويؤثرون حكم المسلمين ؛ ومن ناحية اللغة فانهم يتحدثون

---

(١) Groussel : L'Empire du Levant, pp. 311—312

(٢) Cahen : op. cit. pp. 191—192

(٣) Grousset : op cit. p. 313

(٤) Grousset : Hist. des Croisades, T. III. p. 197

العربية ، ومن ناحية زيهم وطريقتهم فى الحياة ، لايختلفون فيها عن المسلمين الا قليلا ، لانهم تربوا وسط المسلمين واكتسبوا عاداتهم ، وهم يصدقون من ينتقد الفرنجة وينحى عليهم باللائمة ، كما انهم استخدموا فى معظم الاحيان جواسيس على الفرنجة ، وانهم شعب غير محارب (١) • ونستشف من تلك الصورة التى أعطاها لنا جيمس دى فيترى أن المسيحيين الوطنيين فى بادىء الامر ، استقبلوا الغزاة الصليبيين بالترحاب ، لاعتقادهم أنهم بحكم اخوتهم فى الدين سيعيشون معهم فى مناخ افضل من معيشتهم مع المسلمين • غير أنه بانقضاء الوقت ، لمس المسيحيون الوطنيون الفرق بين الروح الصليبية والكراهية المذهبية ، ومن ثم تمنوا زوال حكم اللاتين فى الشام •

أما بالنسبة لليهود فى الارض المقدسة ، فقد عاشوا خلال العصور الوسطى فى كنف المسلمين ، الذين احسنوا دائما معاملتهم ، وسمحوا لهم بمزاولة شعائرهم الدينية فى معابدهم بحرية تامة • وقد اختلف الامر بالنسبة للغرب الاوروبى ، لاسيما خلال الدعوة للحرب الصليبية ، فقد حرصت تلك الدعوة على تأكيد أهمية بيت المقدس ، وهو البلد الذى شهد صلب المسيح فى العقيدة المسيحية • وبذلك توجهت هذه الدعوة ضد أولئك القوم ، الذين على ايديهم صلب المسيح • ومن المسلم به لدى الغرب الأوروبى أن المسلمين كانوا هم العدو القائم بالبلاد ، لانهم يسيطرون على الأرض المقدسة ، ولكن اليهود كانوا أشد عداء ونكرا ، لانهم هم الذين اضطهدوا المسيح نفسه • ومما زاد من كراهية غرب أوروبا لليهود خلال القرن الحادى عشر ، كثرة الفئات التى أخذت تقترض منهم الاموال ؛ فالفارس الصليبى يتكلف نفقات باهظة من أجل تجهيز نفسه للاشتراك فى الحملة الصليبية • فاذا لم يتوافر له من الاملاك ما يرهنها ، فلا بد له أن يقترض المال بفائدة من اليهود ، فى الوقت الذى حرمت فيه الكنيسة الغربية الربا (٢) •

---

(١) Ibid. pp. 197—198

Small : op. cit. p. 53

(٢) رنسيمان : المرجع السابق ، ص ١٩٦ ـ ص ١٩٧ •

Rappoport : Hist. de la Palestine. pp. 197—198

وبتلك الروح الصليبية المشبعة بكراهية اليهود ، جاء الصليبيون الى الشرق الادنى ، بغرض انتزاع بيت المقدس من المسلمين • وما أن سقطت المدينة فى ايديهم عام ١٠٩٩ م ، حتى قاموا بمذابح ، متجاهلين دعوة السلام التى نادى بها المسيح • ولم يسلم اليهود من تلك المذابح ، فبينما اندفعوا الى داخل معبدهم الكبير (الكنيس) ، لم تأخذ الصليبيون بهم رحمة ، فأشعلوا النار فى المعبد ، ولقوا مصرعهم محترقين (١) •

وقد أعطتنا رحلة بنيامين التطيلى (١١٦٠ ـ ١١٧٣ م) بعض المعلومات عن وضع اليهود فى الارض المقدسة ، خلال القرن الثانى عشر حينما زارها حوالى سنة ١١٧٠ م • فقد حزن لضآلة عدد اليهود فى فلسطين ، ففى كل فلسطين لم يجد الا ١١٠٠ يهودى ، منهم ٢٠٠ فى بيت المقدس ، ٣٠٠ فى تبنين ، ٥٠ فى طبرية ، ١٢ فى بيت لحم ، ويهوديا واحدا فى يافا • أما فى دمشق ، تلك المدينة التى لم يستطع الصليبيون الاستيلاء عليها ، والتى كانت خاضعة لنفوذ نور الدين محمود ، فقد وجد بها بنيامين التطيلى من اليهود عددا بلغ ثلاثة أضعاف العدد الموجود فى فلسطين كلها ، وعندما زار بيتاشيا راتزبون Petachia de Ratisbonne هو معاصر لبنيامين التطيلى ـ الارض المقدسة (١١٧٥ ـ ١١٩٠ م) ، لم يجد الا يهوديا واحدا فى بيت المقدس (٢)•

وفى الأراضى المقدسة عاش اليهود منعزلين فى أحياء خاصة بهـــم « جيتو » ghetto ، وهم من الناحية الطبقية فى وضع أقل من المسلمين (٣) ، لم يستطيعوا امتلاك الأرض ، واحتكروا صناعة الأصباغ وتجارتها • ولهم القضاء الخاص بهم ، وهم ملزمون ـ مثلهم فى ذلك مثل المسلمين ـ بدفع ضريبة الرأس ، بواقع بيزنت واحد على كل رجل يزيد عمره عن خمسة عشر عاما (٤) •

ويعتبر عصر الحروب الصليبية ، عصرا مظلما بالنسبة ليهود الشام ، ولم يتحسن وضعهم الا عندما انتصر الهلال مرة أخرى على الصليب ؛ فعندما

---

(١) Ibid. Loc. cit.

(٢) Ibid. P. 208

(٣) Miller : Op. cit. p. 527

(٤) Richard : Le Royaume Latin. p. 125

استولى صلاح الدين على بيت المقدس عام ١١٨٧ م ، سمح لليهود بدخول المدينة ، كذلك فى عهد خلفاء صلاح الدين انتعشت احوال اليهود ، ووصلت لدرجة عالية من الازدهار • وفى تلك الفترة كانت الآلام التى تعرض لها اليهود فى الغرب الأوروبى جديرة بالاعتبار ، ووجد الكثير منهم الملاذ فى ممتلكات صلاح الدين • ويدل على ذلك ازدياد عدد اليهود الذين هاجروا من الغرب الاوروبى الى فلسطين ، ففى عام ١٢١١ م اتى حوالى ٣٠٠ حاخام يهودى من فرنسا وانجلترا ، ووصلوا الى الاراضى المقدسة ، حيث استقبلهم الملك العادل سيف الدين أبو بكر الايوبى ، شقيق صلاح الدين ، استقبالا وديا (١) •

أما السامريون ، فهم فرقة من اليهود ، انشقت بسبب خلافات مذهبية، وعقيدتهم هى عقيدة التوحيد اليهودية ، ولا يوجد ما يشير الى أنها تأثرت بأية معتقدات وثنية ، وكتابهم المقدس أسفار موسى الخمسة (الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم) (٢) • والسامرة ينكرون نبوة من بعد موسى ما عدا هارون ويوشع عليهما السلام ، ويخالفون اليهود أيضا فى استقبال صخرة بيت المقدس ، ويستقبلون طور نابلس ، ويوجهون اليه موتاهم ، زاعمين أنه الذى كلم الله تعالى موسى عليه ؛ ويدعون أن الله تعالى أمر داود عليه السلام ــ وهم ينكرون نبوته ومن تلاه من الانبياء ــ ببناء بيت المقدس ، فخالف وبناه بالقدس (٣) •

والسامريون من الناحية العرقية ، هم بقية القبائل من آشـــور وفارس ، الذين نقلهم سرجون بحوالى سبعمائة سنة قبل الميلاد ، وبرزوا فى حياة المسيح عليه السلام ، كما هو مصور فى موضوع « المرأة السامرية »، وقصة « السامرى الطيب » (٤) • وهم صنفان : صنف يقال لهم الدستان، وصنف يقال لهم الكوشان (٥) •

---

(١) Rappoport : op. cit. pp. 208—209

(٢) Ency. of Religion. pp. 164—165.

(٣) صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٠٣ ،
المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ١ ، ص ٥٩ •

(٤) Hitti : The origins of the Druze People. p. 1

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ •

ونابلس هى مدينة السامرة ، ولايوجدون فى اى مكان آخر سواها ،وبها الجبل الذى يحجون اليه (١) • وهم لايتزاوجون الا فيما بينهم ، لذلك فانهم ينقرضون بسرعة (٢) ، الذ يبلغ عدد الموجود منهم فى نابلس حاليا ١٥٠ سامرى فقط (٣) • وقد اقتبس السامريون من المسلمين ، وتأثر المسلمون بهم فى بعض العادات واللهجات ، وهم يتكلمون بالعربية النابلسية العامية ، وقليل منهم على معرفة باللغة العبرية ، غير أن لغتهم العبرية قديمة ، تختلف عن تلك التى يتكلم بها اليهود اختلافا بينا ، وان كانت اللغتان تنتميان الى أصل واحـــد (٤) •

---

(١) ابن الوردى : خريدة العجائب ، ص ٣٨ •
الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٥٨ ،
صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٠٣ •

(٢) Hitti : op. cit. p. 1

(٣) Les Guides Bleus. p. 542

(٤) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ٢٢٢ •